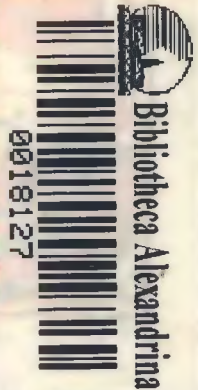


الف ليلة وليلة

حسين جوهير محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

٤



الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	395.1.1.2
رقم التسجيل	17613

الفيلسوف

الجزء الرابع

الصيد والعفريت

ND/MC
S. 8.12
0.58
1
4

كتبه

محمد أحمد برافق

حسن جوهري

أمين أحمد العطار



الطبعة الثانية

General Organization of the
Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina
دار المعارف

رسوم: الفنانة النمساوية ستيللا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء الرابع

صفحة

- أبوقير وأبو صير ٥
 - تاج الملوك ٦٢
 - علاء الدين أبو الشامات ١٠٩
 - الصياد والعفريت ١٤٦
-



أبوقير وأبوصير

(١)

كان في سوق الإسكندرية صباغ اسمه أبو قير ، وحلاق اسمه أبو صير ، وكانا متجاورين : حانوت كل منهما لصق حانوت الآخر

وكان الصباغ أبو قير معروفًا بسوء الخلق ، ولو لم الطبع ، وانحطاط النفس ، لا يتصور عن عمل الشر ، ولا يأنف من إتيان الرذيلة ؛ فكان متحجر القلب ، صلد الفؤاد ، أنانيًا ، لا يهتم من دنياه إلا إشباع بطنه بأشهى المأكولات ، ويسلك للحصول عليها طرقًا مختلفة شريفة ؛ وغير شريفة ، ولا يعنيه أو يسوءه ، أن يذمه الناس أو يعتبوا عليه ، أو يسلقوه بالسنة حديد ؛ فكل شيء من ذلك لا قيمة له عنده ، ما دام قد امتلأ بطنه ؛ ولذلك كان يحتال على الفقراء والمساكين ، يسلبهم مالهم ،

ويبرزُ منهم دَرَاهِمهم بوسائلٍ مُختلفةٍ ، فهوَ محْتال نصاب ، بارعٌ في تديرِ
المكايدِ ، ونَصَبُ الشراكِ .

فقدْ كانتْ مادَّتُه مع حُرْفائِه الذين يَسوقُهم سوءُ طالعِهم إليه كي
يصبغوا ملابسَهم أنْ يطلبَ منهم أجرُه مقدما ، ويستمتعِ بهم دفعه بحجةِ
استِجْلابِ بعض ما تُحتاجُ إليه الصبَاغَةُ من ألوانٍ وغيرِ ألوانٍ ، ثم يأخذُ
النقودَ ، ويصرفُها على ما كَلِهَ ومشرَبِه من غيرِ أنْ يصبغَ لهم ملابسَهم ،
ويزيدُ فيبيعُ هذه الملابسَ ، ويصرفُ ثَمَنها كذلك على نفسِه .

فإذا ما أتى صاحبُ الملابسِ لأخذَ ملابسِه ، ابتسمَ له ابتسامةَ صفراءِ
هادئةٍ ساخرةٍ ، وقالَ له : احضُرْ غدا تجدُ ملابسَكَ مصبوغَةً على
ما تشتهي ، بأزهى الألوانِ وأثبتها .

ويحضُرُ الحريفُ غداً ، فيسمعُ ما سمِعَه أمس مع ابتسامةٍ أعرَضَ
من الابتسامةِ السابقةِ .

وهكذا يتوالى حضُورُ الحريفِ مطالباً بمتاعه ، ويتوالى على سمعِه
قولُ الصباغِ ، ويتكررُ أمامَ عينيهِ منظرُ الابتسامِ والهدوءِ ، ولا يستشِفُ
ما يخفى وراءَ ذلك من سخريةٍ لحسنِ نيتهِ وسلامةِ قلبِه ، ثم يبدأُ يغيّرُ في
نوعِ الاعتذارِ ؛ فهو يُخترعُ أسباباً مُختلفةً ويقدمُ كلَّ يومٍ عُذْراً ، ويطلعُ
بحيلةٍ ، ثم يَصيِّقُ الحريفَ به ذَرْماً ، ويتملكُه الضيقُ والغضبُ . ثم
يأسُ فيقولُ له :

— هاتِ حاجتي ، لا أريدُ صَبْنها .

فيقول الصَّبَّاعُ : يا أَخِي ، أنا في أَشدَّ الخَجَلِ منك .
 فيستفهمه صاحبُ الحاجةِ عن سببِ خَجَلِهِ مع أَنَّهُ يَماطِلُهُ هذه
 المَماطَلَةُ الكَثيرةُ ، التي جعلته يزهقُ منه ، ويطلبُ حاجته .

فيقول له : يا صاحبي ، لقد صَبَغْتُ لك حاجَتَكَ على أَحسنِ ما تُحِبُّ ،
 وعلَّقْتُها على جَبَلٍ لَتَجِفَّ ، فَسُرِّقَتْ ، وأنا أَهْلُك كلَّ مَرَّةٍ إلى غَدٍ ، فلا
 أَستَطيعُ أن أَصارِحَكَ بالْحَقِيقَةِ ، فلما أخرجتَنِي ، وطلبتَ حاجَتَكَ ،
 اضطرَّرتُ إلى مَصارِحَتِكَ اضطراراً ، وأنا الآن أَكادُ أَذُوبُ
 أَمَامَكَ خَجَلًا

فإن كان صاحبُ الحاجةِ يَمُنُّ بِمُؤَثَّرِ السَّلامَةِ ، فوَضَّ أمرُهُ إلى
 الله وانصَرَفَ .

وإن كان من غيرهم اشتَبَكَ معه في سَبابٍ وعراكٍ وخناقٍ ، ثم
 يَنْتَهِى الأمرُ به دونَ أنْ يَنالَ شَيْئاً من حُقوقِهِ ؛ لِأَنَّ الأمرَ يَنْتَهِى بِتَدخُلِ
 بَعْضِ النَّاسِ لَقَضْيِ ذَلِكَ النِّزاعِ الذي يَنْتَهِى غالباً بِالصَّالِحِ ، وَبِتَنازُلِ صاحبِ
 الحَقِّ عن حَقِّهِ ؛ وإِذا لَمْ يَتَنازَلَ ورفَعَ أمرُهُ إلى الحاكِمِ ، فإن الصَّبَّاعَ له
 جَبَلٌ وَالْأَعْيَبُ يَسْتَطيعُ بها أن يَمُوتَ على الحاكِمِ وَمَنْ حوله فلا
 يَحْكُمُ عليه

ولم يزل أبو قير سادِراً في هذا النَّيِّ والبُنيِّ ، لا يَأْبَهُ لسوءِ نِبالٍ من
 سُمَّتِهِ ، ولا تَمَيِّيرٍ يَحُطُّ من كرامَتِهِ ؛ حتَّى اشتهر أمرُهُ ، وشاع خَبَرُهُ .
 وحَدَّرَ النَّاسُ بَعْضُهُم بَعْضاً من مَعامَلَتِهِ . فكفُّوا عنه ، وصار لا يَقْصِدُهُ

إلا من لا يملّ حاله ، وظلّ هو لا يقلع عن تلك العادة الدميمة ولا يكفّ
عن سلب قاصديه تقوّدهم وملابسهم ، مُحْتَالاً لذلك بشقّي الحيل ، منتهجاً
له مختلف الأساليب .

وكان من حيله أن يذهب فيجلس داخل حانوت جارهِ الحلاق ،
ويتخذّه كميناً له ، ويظلّ مترقباً لفريسة يسوقها حظّها المائر إلى حانوته ؛
فإذا حضر إلى حانوته من أعطاه حاجة ليصبغها له ، أبصره من مكمنه ،
فبقى مختفياً داخل حانوت جارهِ ، حتى يمل صاحب الحاجة الانتظار
وينصرف ؛ أما إذا جاء حريفٌ جديدٌ ، ومعه ما يريد صبّغه ؛ خفّ إليه ،
وسأله عن حاجته فيعطيه ما جاء به لصبغه ، فيسأله عن اللون الذي يُريد ،
ثم يطلب منه أجره ؛ ويكون أخيراً نصيبه كنصيب الآخرين .

وهكذا استمرّ الحالُّ بهذا الصباغِ المحتال ، حتى أتاها يوماً رجلٌ
مشاكسٌ قوئٌ ، بنسيجٍ يصبغه له ، وظلّ يتردّد بعد ذلك على الحانوتِ
ليستردّ نسيجه فلا يجد الصباغَ به ، ولا يلمحُ له فيه ظلاً ، ويكون الصباغُ
قد رآه ، فيبالغُ في الاختفاء والانزواء في حانوتِ جارهِ .

ولما تكرّر من الرجلِ الحضورُ إلى حانوتِ الصباغ ، وهو لا يجدُه ؛
ذهب إلى القاضي ، ورفع إليه أمره ؛ فبعث القاضي برسولٍ توجه معه إلى
حانوتِ الصباغ ، فعائنه ، فوجده خالياً كما وصفه الرجلُ ، إلا من بعضِ
آنيةٍ قديمةٍ ، وبضعةٍ مواجيرٍ مكسّرةٍ ، ولم يجد شيئاً ذا قيمةٍ ، يعادلُ
مُنه نسيجَ الرجلِ .

فأوصد رسول القاضى الحانوت ، وسمّره وختمه بحضرة شهيد
أشهدهم على ذلك .

وأخذ مفتاحه معه ، وقال للشجار المجاورين للصباغ :
أبلغوا الصباغ إذا أتى : أننى أنا رسول القاضى ، حضرتُ إلى
دكانه ، وعانيتُ ما به ، ثم أغلقتُه على الصورة التى ترونها ، وهذا هو
المفتاح سأخذه منى ، وعليه أن يحضر ليأخذ مفتاح حانوته ، على أن
يأتى معه بحاجة هذا الرجل .

حدثَ هذا كله تحت سَمْعِ أبى قير وبصره ، ولم يحروا أن يخرج
من دُكان صاحبه ليواجه خصمه ورسول القاضى .

فلما انصرف الرجلُ ورسولُ القاضى ، قال أبو صير لأبى قير :
ماذا دهاك ؟ ، وماذا أصاب عقلك ؟ فكل من أتاك بشئ تصبغه ،
أضمته عليه ، فاحيلتك مع هذا الرجل الجبار العنيد ؟ ، وأين ذهبَت
حاجته ؟ .

فقال أبو قير : يا جارى ، أنا أصدقك الحديث ، ولا أكذبك ؛ إنه
سُرِقَ منى ، وليس معى نقودٌ أشتري بدله .

قال أبو صير : أفكلُّ من يعطيك حاجةً تسرقُ منك ؟ ، ولماذا
كنتَ أنتَ مقصدَ اللصوص دونَ سائرِ الناسِ ، إني لا أؤمن بهذا
القول ، ولا أصدقك .

فقال أبو قير : أصدقك القول يا جارى ، فاسرق منى شئ .

فقال أبو صير : وما الذى تَفَعَّلَهُ إِذْنِ بَتَاعِ الناسِ ؟
قال : كل من أعطانى حاجةً أَيْعَمُها وَأَصْرَفُ ثَمَنُها .
قال أبو صير ، مستنكراً ما قاله جاره : أَيْحِلُ لَكَ اللهُ أَنْ تَفَعَلَ ذلك ؟
أما تَسْتَحْيِ ؟ .

قال أبو قير ، وهو يُظهر التأسفَ والحسرةَ : إنما لَجَأْتُ إلى ذلك
يا صاحِبِ ؛ لِضَيْقِ ذاتِ يَدِي ، وَكَسَادِ حَالِي ، وَشِدَّةِ فَقْرِي .

فقال له أبو صير : أَمَّا اعتذارُكَ عن شِئْءٍ ما تَعْمَلُ بِكَسَادِ الحَالِ
والفقرِ ، فَإِنِ أَكْثَرُ مَنَّاكَ سُوءَ حَالٍ ، وَقِلَّةَ مالٍ ، وعلى الرغمِ من أَنَّى
صَادِقٍ مَاهِرٍ فى صِنَاعَتِي ، لا يَقْصِدُنِي الناسُ ، لما يَظْهَرُ على دُكَّانِي من
البَسَاطَةِ ، وَقَدْ كَرِهْتُ مِهْنَتِي وَزَهَدْتُ فِيها ؛ لِأَنَّ الناسَ لا يَقْدِرُونَ
جودَةَ الصَّنِيعَةِ ، وَإِنَّمَا يُغْرِهُمُ المَنْظَرُ الجليلُ والبَهْرَجُ الحَدَّاعُ ، ومع ذلكَ فَإِنِى
قَانِعٌ راضٍ بما يَسوقُه اللهُ لى من رِزْقٍ ، قَلَّ أو كَثُرَ ، وَأَعِيشْ به عِيشَ
الكِفَافِ ، فَلَا تَمْتَدِّ يَدِي إلى غَيْرِهِ ، وَلَا أَطْمَعُ فى حاجَةِ الناسِ .

قال أبو قير : يا أَخِي ، إِذا كُنْتَ كَرِهْتَ صِنَاعَتَكَ ، وَبَرِمْتَ بِها ،
فأَنَا كذلكَ قَدْ كَرِهْتُ صِنَاعَتِي ، وَبَرِمْتُ بِها ، فَهَلْ تَوافَقْتَنِي على أَنْ نُهاجِرَ
من هذا البلدِ وَنَتْرَكَ ونَسِيحَ فى بلادِ اللهِ الواسِعَةِ ، لعلنا نَجْنِى بَعْدَ الكَرْبِ
فَرَجاً ، وَنُجِدَ بَعْدَ المُسْرِيسِرا ! وَإِنْ سِياحَتُنَا تُخَفِّفُ عَنْ أَنْفُسِنَا ما نَحْنُ
فيه من ضَيْقٍ ، وَتَنْفَسُ عَنَّا ما نَشْعُرُ به من كَرْبٍ ، وَصِناعَتُنَا فى يَدِنَا ، نَأْمَنُ
بِها شرَّ العَوَزِ والجُوعِ ، وَهى نَاقِمَةٌ رَاجِعَةٌ فى أَى بلد نَحِلُ به ؟ .

فصمت أبو صير ، يتدبرُ هذا القولَ ، ولكن أبا قير لم يُفهمه ،
وأخذ يُزَيِّنُ له حُسْنَ الازْتِمَالِ ، وجمالَ السَّيَاحَةِ فِي الْبِلَادِ ، حتى مال
أبو صير لهذا الرَّأْيِ ، وارتاح إلى العملِ به .

وفرَّح أبو قير بموافقة أبي صير له على تنفيذِ فكرته ، وأخذ
يُحدِّثُهُ عن فوائدِ السَّيَاحَةِ فِي الْبِلَادِ ، وما يَجْنِيهِ الْإِنْسَانُ مِنْ وَرَاءِ التَّنْقِلِ
هنا وهناك ، فإنه يَرَى نَاسًا غَيْرَ النَّاسِ الَّذِينَ نَشَأَ بَيْنَهُمْ ، ويحدُّ لهم
أَخْلَاقًا وَعَادَاتٍ غَيْرَ الْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ الَّتِي أَلْفَهَا ، وإن التَّنْقِلَ فِي
الْبِلَادِ يُنْصِبُهُ هَمًّا ، ويسرِّي عنه ، ما يساورُهُ مِنْ حُزْنٍ وَضَجَرٍ ؛ وقد
يُجِدُّ فُسْحَةً مِنَ الْعَيْشِ فَيَزِيدُ رِزْقَهُ ، وَيَكْثُرُ مَالُهُ ، وَيَحْسُنُ حَالُهُ ؛ وقد
يَسْتَفِيدُ عِلْمًا جَدِيدًا ، وَأَدَابًا جَدِيدَةً ؛ ثُمَّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ ؛ يَرَى
أَصْحَابًا ، وَيَتَّخِذُ أَصْدِقَاءَ جَدَدًا ، يَسْتَفِيدُ مِنْهُمْ ، وَيَنْتَفِعُ بِعَمَلِهِمْ .

ظَلَّ أَبُو قِيرٍ يُحَدِّثُ صَاحِبَهُ عَنِ السَّيَاحَةِ وَفَوَائِدِهَا حَتَّى تَأْكُودَ أَنَّهُ
اقْتَنَعَ بِضَرُورَةِ السَّفَرِ ، وَأَنَّهُ لَنْ يَثْنِيَهُ عَنْ عَزَمِهِ أَحَدٌ .

وَانصَرَفَ كُلُّهُمَا يَهَيِّئُ نَفْسَهُ لِلسَّفَرِ ، وَوَعْدًا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ؛
ثُمَّ أَغْلَقَ أَبُو صِيرٍ دُكَّانَهُ ، وَسَلَّمَ مِفْتَاحَهُ لِصَاحِبِهِ بَعْدَ أَنْ أَخَذَ مِنْهُ عِدَّةَ
صَنَاعَتِهِ ، وَحَزَمَهَا مَعَ مَتَاعِهِ ، الَّذِي سَيَحْمِلُهُ مَعَهُ ؛ أَمَّا أَبُو قِيرٍ ، فَقَدْ تَرَكَ
دُكَّانَهُ مُغْلَقًا عَلَى حَالِهِ ، وَمِفْتَاحَهُ عِنْدَ تَابِعِ الْقَاضِي .

وَحِينَمَا فَرَّقا مِنَ الِاسْتِعْدَادِ ، وَعَزَمَا عَلَى السَّفَرِ ، قَالَ أَبُو قِيرٍ

لِرَفِيقِهِ :

يا جارى ، لقد صرنا أخوين ، يجرى على كلِّ منا ما يجرى على أخيه
من خيرٍ وشرٍ ، وغنى وفقر ، وسعد ونحس ، ونعيم وبؤس ؛ فينبغى أن
نقسم على أن من يشتغل منا ، ويكسب ؛ يطعم العاطل ، وكل ما يتوفر
من نقودٍ ندخره فى صندوق ، فإذا رجعنا نانياً إلى الإسكندرية ، تقسمه
بيننا بالحق ، وياخذ كلُّ منا نصفه .

قال أبو صير : أصبنت ، وإننى موافق على ذلك .
واقسم كلُّ منهما ، ثم قرأ الفاتحة ، على أن ينى بذلك العهد .

(٢)

ولما أصبحا ركبا باخرةً من ميناء الإسكندرية ، وأقلعت بهما
وسارت تمخرُ عبابَ الماء ؛ وكانت الباخرة تضمّ عدداً كبيراً من
الركاب والبحّارة ؛ فقال أبو صير لرفيقه : يا أخى ؛ ليس معنا غيرُ زادٍ قليل ،
لا يكفيننا مدةَ سفرنا فى البحر ، وأنا لا أرى فى المراكب أحداً من
الحلّاقين ، وسأعرضُ نفسى على الركّاب ، وأعرفهم أنى حلاق ، فلعلّ
أحداً منهم يدعُونى لأحلقَ له ، فينالنا منه شئٌ يساعداً على معاشنا .
فقال أبو صير : نعم ، لا بأس بذلك .

ثم تشاءب ، وتوسّد رأسه ، ونام .

وهض الحلاق ، فأخذ عدّته ، ووضع على كتفه قطعةً من نسيجٍ ،
تقوم مقام الفوطَةِ لفقره ، وشقّ طريقه بين الركّاب ، يُعرفهم بنفسه ،

ويخبرهم أن صناعته الخلاقة ؛ فناداهُ أحدُهم ، وطلبَ منه أن يخلقَ له ،
فلما انتهى ، أعطاه شيئاً من النقودِ . فقال الخلاق :

— يا سَيِّدِي ، ليس بي حاجةٌ إلى النقودِ ، ولو أعطيتني رغيفاً ،
لكان ذلك أنفعَ لي في هذا البحرِ الذي لا يُباعُ شيءٌ فيه ولا يُشترى .
فأعطاه الرجلُ رغيفاً ، وقِطعةَ جُبِنٍ ، وكوبَ ماءٍ عذبٍ ، فغَمَلَهَا
أبو صير إلى صاحبه ، وأيقظه من نومه ، وقال له : كلْ هذا الرغيْفَ
بالجين ، واشرب هذا الماءَ .

فأخذها منه ، وأكلَ الخبزَ والجينَ ، وشربَ الماءَ .

وعادَ أبو صير ، فشئى بين الركبِ ، يمرضُ مِهْنَتَهُ ، فصار الركبُ
يطلبونه ، فيخلقُ لهذا برغيْفَيْنِ ، ولذاك بقِطعةَ جُبِنٍ ؛ وهكذا حتَّى
أَمسى المساءُ ، وقد جَمَعَ قَدْرًا كبيراً من مُختلفِ الأطِعمةِ ، ومبلغاً لا بأسَ
به من النقودِ .

وأخذ ينسِجُ على هذا المنوالِ كلَّ يومٍ : يخلقُ للركبِ ، ويحمِلُ
ما يُعطونه من أطِمةٍ إلى صاحبه ، فيوقِظه ، فيأْكُلُ ، ثم يعودُ إلى
النَّوْمِ فينام .

وحلَّقَ أبو صير يوماً لرُبَّانِ الباخرةِ ، فلما ناولَه أُجْرَتَهُ تقوداً ، طلبَ
منه أن تكونَ أُجْرَتُهُ طعاماً لِقَلَّةِ زادِهِ ، وما كان الرَّاؤُ الذي أصبحَ يَأْتِيهِ
قليلاً ، ولكنه لجأ إلى ذلك لِشِدَّةِ نَهِمِ أَبِي قَير ، وإتيانه على كلِّ ما يَأْتِيهِ
به من طعامٍ مهما كثر .

فَقَالَ لَهُ الرَّبَّانُ : تَعَالَ كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَتَتَأَوَّلُ عِشَاءَكَ مَعِيَ .

قَالَ الْخَلَّاقُ : يَا سَيِّدِي ، إِنَّ مَعِيَ رَفِيقًا

قَالَ الرَّبَّانُ : لَا بَأْسَ ، أَحْضِرْهُ مَعَكَ ، وَتَعَشَّيَا عِنْدِي كُلَّ لَيْلَةٍ ،
وَلَا تَحْمِلَا هَمًّا مَادُمْتُمَا مَسَافِرَيْنِ مَعَنَا .

فَذَهَبَ أَبُو صَيْرٍ ، وَأَيَقِظَ صَاحِبَهُ ، وَكَانَ مَعَهُ أُجْرَةٌ مَا عَمِلَ فِي
يَوْمِهِ : مِنْ جُبْنٍ ، وَزَيْتُونٍ ، وَبِطَارِخٍ ؛ فَاسْتَيْقِظَ أَبُو قَيْرٍ ، وَمَدَّ يَدَهُ
إِلَى الطَّعَامِ لِأَكْلِ كُلِّ وَهُوَ يَقُولُ :

— مِنْ أَيْنَ لَكَ كُلٌّ هَذَا ؟

قَالَ الْخَلَّاقُ : مِنْ فَيْضِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ لَا تَأْكُلْ مِنْهُ الْآنَ ، وَاتْرَكْهُ
لِنَفْعِنَا فِي وَقْتٍ آخَرَ ، فَقَدْ حَلَقْتُ لِرَبَّانٍ ، فَطَلَبَ مِنِّي أَنْ تُرَافِقَنِي كُلَّ
لَيْلَةٍ ، وَنَذَهَبَ إِلَيْهِ لَتَتَمَشَّى مَعَهُ

فَقَالَ أَبُو قَيْرٍ ، وَهُوَ لَا يَكْفُ يَدَهُ عَنِ الطَّعَامِ : دَعْنِي آكُلْ مِنْ
هَذَا الطَّعَامِ ، فَإِنَّهُ مَا زَالَ فِي رَأْسِي دُوَارٌ مِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ ، وَلَا أَسْتَطِيعُ
أَنْ أَبْرَحَ مَكَانِي .

فَقَالَ أَبُو صَيْرٍ : لَا بَأْسَ ، كُلْ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ .

فَأَقْبَلَ الصَّبَاغُ ، يَلْتَهُمُ الطَّعَامَ التَّهَامَا ، وَيَأْخُذُ قِطْعَةً الْخُبْزِ ، وَيَكْوِزُهَا
مِثْلَ الْكُرَةِ ، ثُمَّ يُثَلِّقُ بِهَا فِي قَهْوِهِ ، وَلَا يَكَادُ يَطْحَنُهَا بِأَسْنَانِهِ طَحْنًا
سَرِيمًا حَتَّى يَزْدَرِدَهَا ازْدِرَادًا ، ثُمَّ يُتْبِعُهَا بَنِيرَهَا ، وَهُوَ يَحْمِلِقُ بَيْنَيْنِهِ فِيمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ حَمْلَقَةَ الْمُسْمُورِ ، وَيَنْفُخُ نَفْخَ الثَّوْرِ الْجَانِعِ عَلَى الْعَلِيقِ .

وَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ ، إِذْ حَضَرَ أَحَدُ الْمَلَاحِينَ ، وَقَالَ لِأَبِي صِيرَ :
— يَا هَذَا ، إِنَّ الرِّبَّانَ يَطْلُبُكَ وَرَفِيقَكَ ، لَتَتَنَاوَلَا عِشَاءً كَمَا عِنْدَهُ .

فَقَالَ أَبُو صِيرَ لِصَاحِبِهِ : أَتَقُومُ مَعِيَ إِلَيْهِ ؟ .

قَالَ : أَنَا لَا أَقْدِرُ عَلَى الْمَشْيِ ، وَلَكِنِّي أَقْدِرُ عَلَى الْأَكْلِ .

فَذَهَبَ الْحَلَّاقُ وَحْدَهُ ، فَرَأَى الرِّبَّانَ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ ، وَأَمَامَهُمْ
مَائِدَةٌ شَهِيَّةٌ حَافِلَةٌ ، عَلَيْهَا نَحْوُ عَشْرِينَ لَوْنًا مِنْ أَلْوَانِ الطَّعَامِ ، الَّتِي يَجْرِي
لَهَا رِيْقُ الشَّبْمَانِ ، فَمَا بِالْكَ بَاجِلُوهَانِ ؟ ! .

وَكَانَ الرِّبَّانُ وَأَصْحَابُهُ يَنْتَظِرُونَ أَبَا صِيرَ وَصَاحِبَهُ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ مُقْبِلًا
وَحْدَهُ : سَأَلَهُ : أَيْنَ رَفِيقُكَ ؟ .

قَالَ : يَا سَيِّدِي ، إِنَّهُ مَصَابٌ بِدُوَارِ الْبَحْرِ .

قَالَ الرِّبَّانُ : لَا بَأْسَ عَلَيْهِ ، سَيَزُولُ عَنْهُ الدُّوَارُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
اجْلِسْ أَنْتَ ، وَتَعَشَّ مَعَنَا .

وَبَعْدَ أَنْ فَرَّغُوا جَمِيعًا مِنَ الطَّعَامِ ، أَخَذَ الرِّبَّانُ طَبَقًا مِنَ اللَّحْمِ
الْمَشْوِيِّ لَمْ يُخَسَّ ، وَوَضَعَ مَعَهُ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ شَيْئًا حَتَّى صَارَ مَا أَعَدَّهُ
يَكْفِي عَشْرَةَ أَشْخَاصٍ مِنَ الْأَكُولِينَ التَّهْمِينَ ، وَأَعْطَاهُ كُلَّهُ لِأَبِي صِيرَ ،
وَهُوَ يَقُولُ لَهُ : خُذْ هَذَا لِصَاحِبِكَ ، لَكِنِّي يَتَعَشَّى بِهِ ، وَطَمِئَنَ عَلَى
نَفْسِهِ ، فَإِنَّ دُوَارَ الْبَحْرِ لَا يَسْتَمِرُّ طَوِيلًا .

أَخَذَ أَبُو صِيرَ الطَّعَامَ . وَذَهَبَ بِهِ إِلَى أَبِي قَيْرَ ، فَرَأَهُ لَا يَزَالُ يَطْعَنُ
بِأَسْنَانِهِ مَا لَدَيْهِ مِنَ طَعَامٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَمَا قُلْتُ لَكَ : لَا تَأْكُلْ هُنَا ،

واصحبني إلى الربان ، فإن خيرهُ كثيرٌ ؛ أنظر هذا الذي أرسلهُ إليك ،
وهو بَعْضُ ما بَقِيَ على ما ئِدَتِهِ .

فقال : ناولني إِيَّاه يا صَدِيقِ .

فأعطاه الطَّبَقَ ، فأخذهُ بِلَهْفَةٍ شديدةٍ ، وكأنهُ لَمْ يَذُقْ طعاماً في
يَوْمِهِ ، واتَّقَضَ عليه انْقِضاضُ السَّكَلَبِ النِّهَمِ ، أو السَّبْعِ السَّكاسِرِ .

فتركهُ أبو صير وذَهَبَ إلى الربان وأصحابه ، وشربَ معهم القَهْوَةَ ،
ثم عادَ إليه فوجدَهُ قد أَتَى على جَمِيعِ ما في الطَّبَقِ ، وألقاهُ بِجَانِبِهِ فارِغاً ،
فأخذهُ وأعادَهُ إلى خَدَمِ الربانِ .

وما زالَ هذا حالُهم : يعمل أبو صير ، ويأكلُ أبو قير ؛ حتى رَسَا
الركبُ على ميناءِ إحدى المَدَنِ بعدَ نحوِ عَشْرِينَ يوماً من مغادرتِهِم
مدينةَ الإسكَنْدَرِيَةِ .

فغادرَ أبو صير وأبو قيرَ المركبَ ، ودخلا المدينةَ ، واستأجرا لهما
حَجْرَةً في خانٍ وخرجَ أبو صير ، فابتاعَ ما يلزَمُهُما من فَرَشٍ قليلٍ مُتَواضِعٍ ،
وفرشَ الحَجْرَةِ ..

ثم عادَ فاشتري ما يَحْتَاجانِ إليه من لَحْمٍ وخُضَرٍ وغيرِهما ، وأوقدَ
النارَ ، وطَها الطعامَ .

أما أبو قيرَ فإنه غَطَّ في نومٍ عميقٍ من وقتِ دخولهِ الحُجْرَةِ ، ولما
هَيَأَ أبو صيرَ الطَّعامَ أَيْقَظَهُ ودعاهُ إلى الطَّعامِ ، فأقبلَ عليه كعادَتِهِ . ولما فرَغَ
وتقدَّ الطعامَ قالَ لرفيقِهِ : لا تُؤَاخِذْنِي . فإنَّ الدُّوَارَ ما زالَ يلازِمُنِي

إلى الآن، ثم أدار ظهره إليه، ونام .

ومرت الأيام ، وفي كلِّ صباحٍ يحملُ أبو صير عُدتَه ، ويَجُولُ في المدينةِ ، فيعمل بما يسوقه له الله من رزقٍ ، ويشترى ما يحتاجُ إليه هو ورفيقه من الطعام ، ويموّد ، فيجده نائماً فيوقفه ، فيقبلُ على ما أتى به من طعام ، ويلتئمهُ ، ثم يعاوده النومُ ، فينام .

وكما قال له أبو صير : اجلسْ مَعِي قليلاً ، أو اخرجْ ، وترىضْ في المدينة ، فإنها مدينةٌ جميلةٌ بديمةٌ — يرد عليه : إن دُورَ البحر ما زال يلزمني .

فتركه أبو صير ، ولا تسمعُ له نفسه أن يشتدَّ عليه في القول ، ويقسُو عليه في المعاملة ؛ لأن ذلك يحزنُه .

وذات يومٍ مرضَ أبو صير ، ولم يستطِعْ الخروجَ للسَّعي وراءَ رزقه أو شراء ما يلزمه هو ورفيقه ، فكلّف بواب الخان ابتياع ما يحتاجان إليه ، وظل على ذلك أربعةَ أيامٍ ، فاشتدَّ عليه المرضُ ، وغابَ عن وعيه .

فاستيقظَ أبو قير ، فلم يجدْ ما يأكلُه ، ووجدَ أبا صير على حاله من شدّة المرض ، فنهض إليه ، وفتشَ ثيابه ، فوجد بها قليلاً من الدراهم ، فأخذها وغادرَ العُرفةَ ، بعد أن أغلقَ بابها على المريضِ ، وخرجَ من الخانِ ، دونَ أن يلاحظه بوابُ الخانِ ؛ ومضى إلى الشوقِ ، فابتاعَ ثياباً جديدةً ارتداها ، ثم سارَ يفرجُ برؤية شوارع المدينة ودكاكينها ، فوجدها مدينةً جميلةً كبيرةً ، ولكن سكّانها لا يرتدون إلّا الملابس ذات اللون

الْأَيْضِ وَالْأَزْرَقِ ، فَنَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَجَبِ ، وَذَهَبَ إِلَى دُكَانِ
أَحَدِ الصَّبَاغِينَ ، وَأَعْطَاهُ ثَوْبًا أَيْضًا ، وَقَالَ لَهُ :
— أُرِيدُ صَبِغَ هَذَا الثَّوْبِ ، فَبِكَمْ تَصْبِغُهُ ؟ .

قَالَ الصَّبَاغُ : بِعَشْرِينَ دِرْهَمًا .

فَقَالَ أَبُو قَيْرٍ : كَيْفَ ذَلِكَ ؟ إِنَّا نَصْبِغُهُ فِي بِلَادِنَا بِدَرَاهِمَيْنِ اثْنَيْنِ .

الصَّبَاغُ : إِنَّا هُنَا لَا نَصْبِغُهُ إِلَّا بِعَشْرِينَ دِرْهَمًا ، لَا تَنْقُصُ شَيْئًا .

أَبُو قَيْرٍ : وَأَيُّ لَوْنٍ تَصْبِغُهُ ؟ .

الصَّبَاغُ : أَصْبِغُهُ بِاللَّوْنِ الْأَزْرَقِ .

أَبُو قَيْرٍ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَصْبِغَهُ بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ .

الصَّبَاغُ : لَا أَعْرِفُ أَنْ أَصْبِغَ بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ .

أَبُو قَيْرٍ : أَصْبِغُهُ لَوْنًا أَصْفَرًا .

الصَّبَاغُ : لَا أَعْرِفُ أَنْ أَصْبِغَ بِاللَّوْنِ الْأَصْفَرِ !

ثُمَّ صَارَ أَبُو قَيْرٍ يَمْدُدُ لَهُ الْأَلْوَانَ ، لَوْنًا بَعْدَ لَوْنٍ ، وَالصَّبَاغُ يَقُولُ لَهُ :

لَا أَعْرِفُ .

وَأَخِيرًا قَالَ لَهُ : اسْمَعْ يَا هَذَا ، نَحْنُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ أَرْبَعُونَ صَبَّاحًا ،

لَا يَزِيدُونَ وَاحِدًا ، وَلَا يَنْقُصُونَ وَاحِدًا ، وَإِذَا مَاتَ مَنَّا وَاحِدٌ ، نَعْلَمُ

وَلَدَهُ ، وَلَا نَعْرِفُ جَمِيعًا غَيْرَ صَبَاغَةِ اللَّوْنِ الْأَزْرَقِ

أَبُو قَيْرٍ : أَعْلَمُ أَيْضًا أَنِّي صَبَّاحٌ ، وَلَكِنِّي أَعْرِفُ صَبَاغَةَ سَائِرِ

الْأَلْوَانِ ، وَأُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تَسْتَحْدِمَنِي عِنْدَكَ ، وَأَنَا أَعْلَمُكَ صَبَاغَةَ جَمِيعِ

الألوان ، لتفخر بها على أفراد طائفتك وأبناء مِنتك .
 الصباغ : نحن لا نقبلُ دخول غريب في صناعتنا أبداً .
 أبوقير : وإذا فتحتُ لي مصبغة وحدي ؟
 قال : لا يُمكنك ذلك أيضاً .

فتركة أبوقير ، وذهبَ إلى صباغ آخر ، فسمع منه نفسَ الكلام ،
 ولم يزلُ ينتقلُ من صباغ إلى صباغ ، يعرضُ نفسه عليهم ، حتى طاف
 بالأربعين صباغاً ، فلم يقبلهُ أحدٌ منهم أجيراً عنده ؛ فاشتدَّ به النعْطُ ،
 وصمَّ أن يشكو أمره إلى ملكِ المدينة ، فسأل عن مقام الملك ، وقصدَ
 إليه واستأذن في الدخولِ عليه ؛ فأذنَ له بعد أن ذكر لحاجِبِ الملكِ
 الفرضَ الذي يرضى إليه من تلك المَقابلة .

فلما مثل بين يديه ، قال : يا ملكَ الزمانِ ، أنا غريبٌ ، وصنعتي
 الصباغة ، وقد حدثتُ لي مع الصباغين هنا
 وقصَّ على الملك ما حدث .

فقال الملك : وأى الألوان تصبغ أنت ؟

قال : أنا أصبغُ جميعَ الألوان ، وأخرج من كلِّ لونٍ ألواناً ؛ فالأحمر
 مثلاً ، أستطيعُ أن أخرجَ منه ألواناً مختلفةً ؛ فهذا أحمر ورديّ ، وهذا
 أحمر عتّابي ، وهذا غير ذلك ؛ والأخضر كذلك ، أستطيعُ أن أخرجَ
 منه ألواناً مختلفةً ؛ فهذا أخضر زرعي ، وذاك أخضر فُستقي ، وذلك
 أخضر زَبْتِي ، وهكذا .

وصار يمددُ الألوان ، ويدكر ما يُمكن أن يشتق منها ، ثم قال :
 فأنتم ترونَ يا ملك الزمان — بعد هذا — أنى أعرفُ كلَّ
 الألوان ، فى حين أن صبّاعى مدينتكم لا يعرفون غير اللون الأزرق ،
 ومع ذلك فهم لا يريدون أن يقبلونى عندم معلما ولا أجيرا .
 فقال الملك : لا بأس ، سأنشئ أنا لك مصبغة ، وأعطيك مالا
 تستعين به على عملك ، وما عليك منهم ، وكل من تعرض لك ، فسيكون
 جزاؤه رادعا ، وعقابُه شديدا .

وفرح الملك بهذا الصباغ الذى سيفتح فى مدينته فتحة جديدا .
 وأمر له بحلّة ثمينة ومملوكين وجواد ، وأعطاه ألف دينار ، وقال
 له : اصرف من هذا المال على نفسك ، حتى يتمّ بناء مصبغتك .
 ثم أمر بإحضار البنائين ، وقال لهم : امضوا مع هذا الصباغ البارع
 وطوفوا به فى المدينة ليعاين أسواقها وشوارعها ، والمسكان الذى يستحسنه
 ويقع عليه اختياره ؛ أقيموا له فيه مصبغة كاملة حسب رغبته وإرشاده ،
 ولا تخالفوه فى كل ما يُشير عليكم به .

وأمر الملك بإعداد مسكن خاص لأبى قير ، فهبّ له المسكن ،
 وفُرشت حجراته بفاخر الفرش ، وزين بأنعم الأثاث ، وأقيم عليه الخدم
 والحشم ، وأجرى عليه الرزق الواسع .

وفى اليوم الثانى ركب أبوقير جواده ، وطاف بالمدينة كأنه أمير
 عظيم ، يتقدمه المهندسون ويسير خلفه البناءون ، وهو يتأمل فيما يرون

به من أما كنّ و بنايات ، حتى وقع اختياره على مكان منها .
فقال : هذا مكان طيبٌ ، أقيموا المصبغة هنا .

فطلب مرافقوه من صاحبه المسارعة إلى إخلائه ، وصحبوه إلى الملك ، فأعطاهن ما أخلى ، وشرع العمال من فورهم في بناء المصبغة على التصميم الذى أشار عليهم به أبو قير ، وحسب توجيهاته . ولم يمض قليل حتى تم بناء مصبغة عظيمة نخمة ، ليس لها شبيهة في تلك المملكة ، وذهب مهندس المصبغة إلى الملك ، وأخبره بانتهاء البناء وحضر أبو قير ، وذكر ما يحتاج إلى شرائه من أدوات الصباغة ومعداتها ، فأعطاه الملك أربعة آلاف دينار ، وقال له : خذ هذا واجعله رأس مالك ، وأرني ثمرة مصبغتك وسأرسلُ إليك جملةً من الملابس ، تصبغها لى ، وتفتتح بها عملك .

فأخذ أبو قير المال ، وذهب إلى السوق ، وابتاع جميع ما تحتاج إليه المصبغة ، وأحضر من العمال ما يكتفى لتشغيلها ، وهياً لكل منهم عملاً ، وأرشداه إلى الطريقة التى يتبعها فى أداء عمله ، وجعل لنفسه الإشراف عليهم جميعاً .

وقام العمل على قدم وساق بالمصبغة ، وبعد وقت قصير ، كانت الملابس التى أرسلها إليه الملك ، وهى تزيد على خمسمائة ثوب من النسيج الأبيض ؛ قد نُشِرت لتجف فوق الجبال ، زاهية بختلاف الألوان البديعة الجميلة ؛ لأن أباقير — على الرغم من مساويه — حاذق بارع فى فنه .

ورأى الناس عجباً ، فكل من مرَّ أمام المصبغة ، وقف يتأمل ما يرى : يرى ثياباً ملوَّنةً بألوانٍ عجبية غريبة ، ماراًواً مثلها قط ، ترفرف كالأعلام في مدخل المصبغة ، يأخذ المين جالها ، ويهر النفس تعدد ألوانها .

ازدحم الناس حول المصبغة ، حتى سدوا الطريق إليها ، يتفرجون ويشاهدون ويسألون ، ويستفهمون ؛ فيخبرهم أبو قير بما غم عليهم ، ويشرح لهم ما بمد عن فهمهم ويعرفهم الألوان وأسماءها ، قائلاً لهم : هذا اللون اسمه أحمر ، وهذا اسمه أخضر ، أما هذا فأصفر .

أخذ الناس يستمعون له مشدوهين متعجبين .

وما انفضوا من حوله بعد ذلك إلا ليهرعوا إلى منازلهم ليحضروا له ملابسهم ، أو إلى الأسواق لشراء ملابس جديدة ، على أن يعودوا مسرعين — فيدفعوها إليه جميعاً ، لصبغها بهذه الألوان الجميلة ، التي فعلت فيهم فعل السحر ، وكادت تذهب بمقولهم .

وذهب أبو قير إلى الملك ، وقدم إليه ما صبغه له من الثياب ، فسرَّ الملك من ألوانها ، وفرح فرحاً شديداً ، وأنعم عليه بنعم جزيلة .

وتوافد الكبراء والأعيان والجنود إلى مصبغة أبي قير ، كلُّ يريد صبغ ما جلبه معه من ثياب ، ثم يلقون إلى صاحبها بالذهب والفضة بغير حساب .

وذاع صيت المصبغة ، واشتهرت ، وسميت مصبغة السلطان .



أما صباغو المدينة ، فقد ذهبت ربحهم ، وساءت حالهم ، وبارت
صناعتهم ، وانفض الحرفاء من حولهم ، وصاروا يُمسُونَ كما يُصْبِحُونَ ،
ويصْبِحُونَ كما يُمسُونَ ، لا يقصدُ إليهم أحد ، فيظلون جالسين جميعاً
يومهم على أبواب دكاكينهم ، ينشأ بُونٌ من شدة الكسل الذى حطَّ
عليهم ؛ ولما طال بهم الوقتُ وهم على تلك الحال ، لم يُطِيقُوا صَبْرًا ؛ فأتوا
إلى أبى قير يستغفرونه ، ويتوبونَ إليه ، ويرجونه أن يضُمَّهم إلى مصبغته
عمَّالًا ، يأجرهم بما يشاء ؛ ليحصلوا رزقهم ، ويستطيعوا أن يُنفِقُوا على
أُسْرِمٍ ؛ فأبى ولم يقبل استغفاراً ولا توبةً ولا رجاءً ، وذكَّركم بما فعلوه به
حينَ عرضَ عليهم نفسهُ واحداً واحداً ، وكلهم رفض أن يأجره ولو
بكسرة خبز .

ودرت المصبغة على أبى قير الأموال الكثيرة ، فعاش عيشَ المترفين
واقتنى الخدمَ والحشمَ والجواري ، وأصبح من كبار الأغنياء .

(٣)

ونعودُ لأبى صير ، لنرى ما حصلَ له بعد أن تركه أبو قير مغشياً
عليه فى الحجرة وحيداً مريضاً ، وقد سلبته مامعه من نُقُود .

إنه ظلَّ على حالته من العيوبة وارتفاعِ الحرارةِ والهديان - ثلاثة
أيام ، لا يقومُ أحدٌ على تمرِيضه ، أو مُواساته والتخفيفِ عنه ، ولا يدُقُّ
شيئاً من طعام أو شراب ولا يحسُّ أنه فى الدنيا .

ثم انتبه بواب الخان لبابِ الحجرة المغلق ، وفطنَ إلى أنه لم يُفتح منذ أيامٍ ، وإلى عدم دخول أحدِ الرجلين أو خروجه ؛ فقال لنفسه : لعلهما سافرا في سرٍّ ، ليتخلصا من دفع أجرَةِ العُرْفَةِ ، أو لعله قد حدثَ لهما سوءٌ ، فخرجَا ولم يعمودا ، أو دخلا ولم يخرجَا .

فاقتربَ من بابِ العُرْفَةِ يَسْمَعُ ، فسمع صوتًا خافتًا ضميها ، يَبْثُ ويتوجعُ ، فطرقَ الباب فلم يَسْمَعْ إلا ذلك الصوت ، فاحتالَ على فتحه ، وظلَّ يُمالِجُ القفلَ حتى فتحه ، ودخلَ ، فأبصرَ أباصيرَ راقداً على الأرضِ ، وقد غدا ضميها خائراً ، باهت اللون ، شاحباً ؛ ولولا صوته الضعيفُ الخافت ، ولولا حركة عينيهِ — لظن أنه مات .

استعجب البوابُ حيناً رأى أباصيرَ على هذه الحالِ ، فدنا منه ، وقال له : ما بالكَ ؟ ، وأين رفيقك ؟ .

فردَّ بصوتٍ يكاد لا يسمع : لا أدري ، فاشعرتُ بنفسِي إلا في هذه اللحظة .

ثم أشارَ إليه أن يأخذَ من كيسِ نقوده شيئاً ، ليشتريَ له به شيئاً يُسْعِفُهُ به من دواءٍ وطعامٍ ؛ فأخذَ البوابُ الكيسَ ، فوجده فارغاً ، فقال له :

إن الكيسَ فارغٌ ، وليس به شيءٌ من النقود .

فقال للبواب : أما رأيتَ رفيقي ؟ .

قال : مارأيتُهُ من ثلاثةِ أيامٍ ، وقد ظننتُ أنكما قد سافرتُما معا .

فَأَذْرَكَ أَبُو صِيرٍ أَنَّ أَبَا قِيرٍ قَدْ أَخَذَ النُّقُودَ وَهَرَبَ .
بَكَى أَبُو صِيرٍ وَاتَّعَبَ ، وَقَالَ : إِنَّمَا هُوَ قَدْ تَرَكَنِي ، وَأَخَذَ نُقُودِي
وَهَرَبَ .

فَقَالَ الْبَوَابُ : لَا تَبْكِي ، لَا بَأْسَ عَلَيْكِ ، فَسَيَلْقَى جِزَاءَ فِعْلِهِ ، وَلَنْ
يُفْلِتَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ فَإِنَّهُ خَائِنٌ غَدَّارٌ ؛ لِأَنِّي كُنْتُ أُلَاحِظُ أَنَّهُ يَنَامُ لَيْلًا
وَنَهَارًا ، وَلَا يَسْتَقِظُ مِنْ نَوْمِهِ ، إِلَّا إِذَا عُذَّتْ إِلَيْهِ بِالطَّعَامِ ، فَيَنْهَضُ ،
وَلَا يَنْتَهِي مِنَ الْأَكْلِ حَتَّى يَنَامَ ، وَأَنْتِ تَسْمَى جَمِيعَ يَوْمِكَ لِتَحْصَلَ
رِزْقُهُ وَرِزْقُكِ ؛ ثُمَّ يَسْلُبُكِ بَعْدَ ذَلِكَ مَا فِي جَيْبِكَ مِنْ مَالٍ ، وَيَتْرَكَ
مَرِيضًا مَنْشِيًّا عَلَيْكِ ؛ هَذِهِ خِيَانَتُهُ أَنْ يَنْفِرَهَا اللَّهُ لَهُ ، فَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَيَاسَ
مِنْ فَرَجِ اللَّهِ .

وَذَهَبَ الْبَوَابُ فَصَنَعَ لَهُ حِسَاءً ، وَأَتَاهُ بِشَيْءٍ مِنْهُ ، فَلَمَّا تَنَاوَلَهُ ،
اتَّعَشَتْ نَفْسُهُ وَقَوِيَتْ رَوْحُهُ ، وَدَبَّ فِيهِ بَعْضُ النَّشَاطِ .

وَزَلَّ بَوَابُ الْخُلَانِ يَتَعَهَّدُ أَبَا صِيرٍ ، وَيَرْمَاهُ مَدَّةَ شَهْرَيْنِ ، حَتَّى
شَفِيَ ، وَأَبْلَى مِنْ مَرَضِهِ وَغَادَرَ فِرَاشَهُ ؛ فَصَارَ يَشْكُرُ بَوَابَ الْخُلَانِ عَلَى
مَعْرِفَتِهِ ، وَفَضْلِهِ عَلَيْهِ ؛ وَيَقُولُ لَهُ : سَأُجَازِيكَ — إِنْ قَدَّرَنِي اللَّهُ — عَلَى
مَا فَعَلْتَ مَعِيَ مِنَ الْخَيْرِ ، فَقَدْ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ ، وَتَعَهَّدْتَنِي
وَأَنَا مَرِيضٌ ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَنْكُرُ لِي فِيهِ مَنْ كُنْتُ أَوْزِرُهُ عَلَى نَفْسِي
وَأَبْرَهُ ، وَأَعْطَيْتَ عَلَيْهِ .

فَيَقُولُ الْبَوَابُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى شِفَائِكَ وَمَا بَنَيْتَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ الْكَرِيمِ ،

أريد منك جزاء ولا شُكُوراً.

وخرج أبو صير إلى أسواق المدينة ، يُسَمِّي وراء الكسب ،
 قدماه إلى المكان الذي فيه مصبغة أبي قير ، فرأى الناس متجمهرين
 بن ، يتفرجون على الأثواب الملونة المعروضة بياب المصبغة ، فسأل
 منهم :

ما هذا المكان ؟ ومالي أرى الناس مزدحمين حوله ؟ فأبى شئ فيه ؟
 قتال الرجل : إن هذه مصبغة السلطان ، وقد أنشأها لرجل غريب
 أباقير ، ونحن تفرجُ على الألوان التي يصنع بها الملابس ، فهي
 لا عهد لنا بها ؛ لأن الصباغين في مدينتنا لا يعرفون غير اللونِ
 ن .

ثم أخبره بما جرى بين أبي قير والصباغين ، وكيف شكاهم إلى
 ، وكيف أقام له الملك المصبغة .

ففرح أبو صير لما غدا عليه حال صاحبه أبي قير ، والتمس له العذر
 ثم سأل عنه ، لكثرة ما يشغله ، ويزحم وقته كله ، حتى غاب
 له أن له صاحباً ، وأنه تركه مريضاً في الخان ؛ ولكنه متى رآه ،
 يحُ به ، ويُكرمه ، ويذكرُ ما فعله هو معه : من رفق به ،
 رام له في أثناء بطالته ، أو يذكرُ على الأقل أن ينههما عهداً ، وأن
 ن يقي ببعض ذلك العهد .

فتقدم وشفق طريقه بين الجمع المزدحم ، حتى وصل إلى المصبغة ،

فوجد أبا قير جالساً على حَشِيَّةٍ عالية فوقَ مصطبة ببابِ المصبغة ، يرتدي حلةً ثميّة ، لا يلبسُها إلا الأسماء ، وأمامه أربعة عبيد ، وأربعة مماليك يلبسون أفخر الملابس .

ورأى العمال داخل المصبغة يشتغلون ، ويستشيرون أبا قير ، ويعملون بأمره وهو مضطجع بين الوسائد لا يعمل شيئاً .
فتقدم أبو صير منه ، وهو مُوقنٌ من أنه متى رآه فسيرحبُّ به ، ويفرحُ لمقدمه .

ولكن ما وقعت عين أبي قير على أبي صير ، حتى قال : يا خبيث ، كم من مرّة قلت لك : لا تقف في باب هذه الخزانة ؟ أتريد سرتي يا لص ؟ أقبضوا عليه يا عبيد .

فاندفع نحوه العبيد ، وقبضوا عليه ، وحينئذٍ نهض إليه أبو قير من مجلسه ، ويده عصا غليظة ، وهو يقول للخدم :
أطرحوه أرضاً .

فطرحوه على الأرض ، فنزل عليه بمصاه ، يُشبعُه ضرباً ، وهو يقول : يا خائن ، والله إن رأيتك وافقاً بعد هذا اليوم بباب المصبغة ، لأرسلنك إلى الملك ، ليَقْطَعَ عُنُقَكَ ؛ فأنصرف أبو صير مُبتئساً حزينا باكياً يجرّ أذيال الخزي والمهانة .

وسأل الحاضرون أبا قير ، عما أتاه الرجل ، حتى أنزل به هذا العقاب الشديد ، وضربه ذلك الضرب المبرح ؟

فقال : إنه لص ، يسرق أمتعة الناس ، فكم مرة سرق مني ثيابا ، وكنت أتعرفُ عليه ، ويقرُّ أنه السارق ، ومع ذلك كنتُ أسامحه ، لأنه رجلٌ فقير ، وأعطى الناسَ ثمنَ أمتعتهم ، وأنهاهُ بلطفٍ فلا ينتهي ، وأقدمُ له النصيح فلا ينتصِح .

فأقره الجميع على ما فعل ، وسبوا أباصير في غيَّته ، وقالوا : إنه يستأهل ما حلَّ به .

عاد أبو صير إلى الخمان ، كاسف البال ، سئى الحال ، وجلس في حجرته حزينا ، يفكرُ فيما فعله به أبو قير ، فلم يستطع أن يجد سببا يدفع برفيقه الذى رعاه وخدمه أن يفعل به ما فعل .

وبعد أن أعيأه جهد الفكر ، نهضَ وخرج يبحث عن حمام عام ، يستحم به ، وينسلُ جسمه ، ويزيل عنه ما علق به من الأوساخ ، ولا سيما أنه مضى عليه وقتٌ طويل لم يستحم ؛ فقابل رجلاً من أهل المدينة ، وسأله عن الطريق الموصِّل إلى الحمام فقال الرجل : وما يكونُ الحمام ؟

فدهش أبو صير لجهله ، وقال له : هو موضع يغتسل فيه الناس ، ويزيلون ما على أجسامهم من الأوساخ ، وهو يُعدُّ من طيبات الدنيا .

فقال الرجل : عليك بالبحر يا هذا ، فإن حمامنا الذى نغتسل فيه ، ونُنظفُ أجسامنا بمائه — هو البحر ، وهو من أطيب طيبات الدنيا . فقال أبو صير : إننا قصدتُ الحمام ، وما قصدتُ البحر .

قال الرجل : نحن لا نعرفُ الحمام ، ولا كيف يَكُون ، والذى لا يَفْتَسِل في منزله يَفْتَسِل في البحر ، والمَلِكُ نفسه يَفْعَل ذلك .

فَتَعَجَّبَ أَبُو صِيرٍ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ لَيْسَ بِالْمَدِينَةِ مَنْ يَعْرِفُ الْحَمَامَ ، فَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِالذَّهَابِ إِلَى الْمَلِكِ ، وَيُشْرَحَ لَهُ مِيزَةُ الْحَمَامِ ، وَيَطْلَبَ مِنْهُ أَنْ يُعَيِّنَهُ عَلَى إِقَامَةِ حَمَامٍ بِمَدِينَتِهِ .

وبعد أن اختمرت في نفسه الفكرة ، لم يَتَوَأَّنْ عَنْ تَنْفِيذِهَا ، فَقَصَّدَ مِنْ سَاعَتِهِ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ ، وَطَلَبَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ بِالْمَثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ .

فلما أُذِنَ لَهُ بِمُقَابَلَةِ الْمَلِكِ ، قَالَ لَهُ : يَا مَلِكُ الزَّمَانِ ، أَنَا رَجُلٌ غَرِيبٌ ، وَصِنَاعَتِي حَمَامِي ، فَلَمَّا حَضَرْتُ إِلَى مَدِينَتِكُمْ ، وَأَدْرَكْتُ الذَّهَابَ إِلَى الْحَمَامِ ، لَمْ أَجِدْهَا حَمَامًا وَاحِدًا ، فَتَعَجَّيْتُ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَدِينَةً جَمِيلَةً مِثْلَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ — خَالِيَةً مِنْ حَمَامٍ .

فَقَالَ الْمَلِكُ مُسْتَفْهِمًا : وَمَا الْحَمَامُ ؟

فَأَسْنَبَ أَبُو صِيرٍ فِي وَصْفِ الْحَمَامِ ، وَمَنَافِعِهِ ، وَمِيزَاتِهِ ، وَضُرُورَةِ إِنْشَاءِهِ ؛ فَاقْتَنَعَ الْمَلِكُ بِكَلَامِهِ ، وَأَعْجَبَ كَثِيرًا بِمَا صَوَّرَهُ لَهُ فِي وَصْفِهِ .

وَقَالَ لَهُ : مَرَحَبًا بِمَقْدَمِكَ ، وَلَقَدْ وَاقَعْتُكَ عَلَى إِنْشَاءِ هَذَا الْحَمَامِ ، فَافْعَلْ مَا تَرَى ، وَسَأُقَوِّمُ بِدَفْعِ جَمِيعِ مَا تَطْلُبُ مِنْ نَفَقَاتِ إِقَامَتِهِ ، وَأَعْمَلُهُ بِحُقَّةٍ ثَمِينَةٍ ، وَجِوَادٍ وَعَبْدَيْنِ ، وَأَرْبَعَ جَوَارٍ ، وَعَمَلُوكَيْنِ ؛ وَهَيَّا لَهُ دَارًا مَفْرُوشَةً ، وَأَكْرَمَهُ أَكْثَرَ مِمَّا أَكْرَمَ الصَّبَاغَ

وكذلك أمر البنائين بمصاحبتِه ، والطواف معه بالمدينة ، وفي
المكان الذي يقع عليه اختيارُه ، يشرعون فوراً في إقامة ما يطلبه منهم .
وأقيم الحمام في المكان الذي وقَّع عليه اختيارُ أبي صير ، وشُيِّدَتْ به
الأحواض والفساق والمناطس حسب إرشادِه ، ونُصِبَت الحنفيات في
سائر أرجائه ، ثم نقش بأدق النقوش وأجملها ، فجاء تحفة رائعة ، تسرُّ
العَيْن ، وتبهج النفس .

وأخبر أبو صير الملك بتمام تشييد الحمام ، وبأنه لم يمدَّ من تشييده
إلا فرشَه بما يكفُل الراحة للمستعمين ، فأعطاه الملك عشرة آلاف دينار .
فأخذها أبو صير ، وابتاع ما يلزم الحمام من طنافس وحشأيا ووسائد
وأغطية ، كما ابتاع كمية وافرة من القوط ، نثرها على المشايخ في
أرجاء الحمام .

وبعد ذلك أوقد الوقود في آتون النار ، وأجرى الماء ، فجرى في
مجاربه حاراً وبارداً ، وازدحم الناس حول الحمام يشاهدون ويتفرجون
ويتمجَّبون ، كما فعلوا حين تشييد مصبغة أبي قير من قبل .

واستفهم الناس عن كُنْه الحمام وماهيَّته ، فشرح لهم صاحبُه ما غُمَّ
عنهم ، وخفي عليهم ، ودعاهم إلى الدخول فيه ، والاستمتاع بنعيمه ،
ومباهجِه ، فدخلوا زرافاتٍ زرافاتٍ ، يتلو بعضها بعضاً .

وكان أبو صير قد أحضرَ غلماناً لخدمة العملاء ، وعلمهم فن الحماميَّ
في التكييس والتدليك ، فأتقنوا مهنتهم الجديدة آتَمَّ إتقانٍ ؛ فإذا ما دخل

العميل الراغبُ في الاستحمام ساعده الغلام على خلع ملابسه ، وصحبه إلى أحواض الماء ، وقام بغسله وأرشده إلى مغطس الماء الساخن ، وعن المدة التي يسمح له بالمكث فيه ، وهكذا حتى ينتهي به أخيراً إلى الفراش الوثير الممدّ فوق المصاطب الفسيحة ؛ ليأخذ المستحم قسطاً من الراحة والاسترخاء عقب الحمام الحار ، ثم يعقب ذلك بتقديم الشراب الساخن . فإذا ما خرج المستحم بعد ذلك ، كان كأنه خارجٌ حقاً من جنات النعيم ، قد انتمش جسمه ، وخفّت روحه ، وصفت نفسه ، وشعر بكامل الراحة والشور .

واتّشّرخيرُ الحمام في أرجاء المدينة ، فقصدهُ الناس من كلِّ حدب وصوب ، وظلّوا يستحمون فيه ، ويتمنون بمباهجه مجانياً من غير أن يدفعوا أجرة لاستخدامهم مدة ثلاثة أيام .

وفي اليوم الرابع كان قد تم تجهيزُ الحمام ، وإعدادُه ، وفرشه بفافر لأنث ، وتجميله بأجمل الرياش — ذهب أبو صير إلى الملك ودعاه لمشاهدته ، فذهب الملكُ إليه ، يحفُّ به رجالٌ حاشيته ، وتفرجوا به ، فأعجبهم أيما إعجاب .

وقال له أبو صير وغلامته ، وأسرعوا جميعاً إلى خدمته ، وخدمة من معه من رجال دولته .

وصاحب أبو صير الملكَ إلى مقصورة نخمة ، وقام هو على غسله وتذليكه وتكبيسه ، وكان قد أعدّ له ماء ممزوجاً بالعطر وماء الورد ، وأخذ

يَصْبِهِ عَلَيْهِ صَبًا ، ثُمَّ صَاحَبَهُ إِلَى الْمَغْطَسِ ، وَسَاعَدَهُ عَلَى النُّزُولِ إِلَيْهِ ، وَبَعْدَ
فَتْرَةٍ خَرَجَ الْمَلِكُ وَقَدْ انْبَسَطَ ، وَرَطَّبَ جِسْمَهُ ، وَشَعَرَ بِنَشَاطٍ فِي بَدَنِهِ ،
وَالشَّرَاحِ فِي قَلْبِهِ ، وَانْتَعَشَ فِي نَفْسِهِ ، وَكَأَنَّهَا الدُّنْيَا قَدْ انْفَسَحَتْ لَهُ كُلَّهَا
فَلَيْسَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَسْعَدَ مِنْهُ ، وَبَعْدَ أَنْ ارْتَدَّى مَلَابِسَهُ ، اضْطَجَعَ
فَوْقَ الْوَسَائِدِ ، يَتَلَذَّذُ بِالرَّاحَةِ ، وَيَسْتَمْتِعُ بِالشَّرَرِ ، وَتَطْيِبُ نَفْسَهُ
بِالْهَدُوءِ ، وَبَعْدَ أَنْ أَحْسَّ أَنَّهُ نَالَ مِنْ ذَلِكَ قِسْطًا كَبِيرًا نَهَضَ مَبْتَهِجًا ،
وَاسْتَدْعَى الْحَمَامَىَّ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ : أَهَذَا هُوَ الْحَمَامُ يَا أَبَا صِيرَ ؟

قَالَ أَبُو صِيرَ : نَعَمْ يَا مَوْلَايَ ، هَذَا هُوَ الْحَمَامُ .

قَالَ الْمَلِكُ : حَقًّا ، إِنَّ مَدِينَتِي لَمْ تَكُنْ مَدِينَةً كَامِلَةً الْبَهْجَةِ وَالْأُتْبَةِ
إِلَّا بَعْدَ هَذَا الْحَمَامِ : فَإِنَّهَا بِإِنْشَائِهِ اسْتَكْمَلْتُ شَيْئًا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْتَفْتِي
عَنْهُ مَدِينَةٌ يُحِبُّ مَلِكُهَا أَنْ يُوَفِّرَ لَشَعْبِهِ فِيهَا أَسْبَابَ النِّعَمِ .
كَمْ تَأْخُذُ أَجْرَةً عَلَى الْفَرْدِ الْوَاحِدِ يَا أَبَا صِيرَ ؟ .

قَالَ أَبُو صِيرَ : الَّذِي تَأْمُرُ بِهِ آخُذُهُ يَا مَلِكُ الزَّمَانِ .

قَالَ : سَأَمُرُّكَ بِأَلْفِ دِينَارٍ . وَكُلُّ مَنْ يَغْتَسِلُ عِنْدَكَ تَقَاضَى مِنْهُ
أَلْفَ دِينَارٍ .

فَقَالَ أَبُو صِيرَ : عَفْوًا يَا مَلِكُ الزَّمَانِ ، إِنَّ النَّاسَ لَيْسُوا سَوَاءً ، فَهِنْهُمْ
النَّعْيُ ، وَمِنْهُمْ الْفَقِيرُ ، وَالْفَقِيرُ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ أَلْفِ دِينَارٍ ؛ وَلَوْ أَخَذْتُ
أَلْفَ دِينَارٍ مِنْ كُلِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَحِمَّ عِنْدِي لَكَسَدَتْ حَالُ الْحَمَامِ
وَانْصَرَفَ النَّاسُ عَنْهُ ، وَلَمْ يَقْصِدْهُ أَحَدٌ .

قال الملك : وماذا تريد أن تفعل ؟ .

قال : أجمل الأجرة مرتبطة بالمقدرة ، فكلُّ على حسب حاله ، ومن يقدر على شيء يدفعه ، والذي تسمعُ به نفسه يُعطيه ، فلا تأخذُ من إنسان إلا ما يُطيقه . فإذا فعلنا ذلك يقبل الناسُ على الحِمَام ، ويصيرُ له شأنٌ عظيم . أما الألف الدينار فهي عِطِيَّةُ الملك ، ولا يَقْدِرُ عليها أحد . فأثمن الحاضرون على كلامِ أبي صير ، وقالوا : إنه الحقُّ يا ملك الزمان . أعجب الملكُ من قوله ، ولكنَّه قال لِرجاله : إنا هو رجُلٌ غريبٌ فقيرٌ ، وإكرامه واجبٌ علينا ، وقد فعل لنا شيئاً عظيماً : فأنشأ هذا الحمام الذي مارأينا ولا رأَت مدينتنا مثله .

فقال كبارُ الحاضرين : نعم إن إكرامه واجبٌ ، ولكنَّه من مآك الزمان جميلٌ ، وليس واجباً على الفقير لأنه غيرُ مُستطيع ، بل إن إكرام الفقير نفسه برٌّ وفَضْلٌ من ملك الزمان ، ومن مظاهره العملُ على تخفيض أجرة الحِمَام .

فقال الملك : صدقتم ، ولكني أطلب منكم أنتم معاشرُ أكبر الدولة أن يعطيه كل منكم في هذه المرة مائة دينارٍ ومملوكاً وعبداً وجارية .

قالوا : سَمعاً وطاعة ، سنُعطيهِ جميعاً ذلك ، على أن يعطيه كل من دَخَلَ بعد ذلك اليوم ما تجود به نفسه .

قال الملك : لا بأس .

فأعطاه جميع الحاضرين ما أمر به الملك ، كما أعطاه الملك عشرة آلاف

دينار وعشر ممالك، وأعطاه مثلها من الجوارى والعبيد .

فتقدم أبو صير، وقبل الأرض بين يدى الملك ، وقال : أيها الملك السعيد ، صاحب رأى الرشيد ، والفكر السديد ؛ أى مكان يستحق هؤلاء الممالك والجوارى والعبيد ؟ .

قال الملك لكبير مهندسيه : ابن له قصر آخضاً ، وأثنته بأجل الأثاث وأفخر الرياش ، ليقيم فيه هو وعبيده ومماليكه وجواريه ؛ وجعل ولا يُبْطِئُ ؛ فقال كبير المهندسين : سمعاً وطاعة يأمرك الزمان .

ثم توجه الملك إلى أبي صير وقال له : أعلم أنى ما أمرتُ بدفع هذا المال إليك إلا ليكون لك ثروة عظيمة ؛ لأنك غريب ، وربما كان لك أهلٌ وأولاد ، تشتاق إلى رؤيتهم ، وترغبُ فى السفر إليهم ، فنكون بذلك قد وهبنا لك شيئاً تستعين به إذا ما عدت إلى وطنك .

ولملك تستعجلُ فترسل إليهم من ذلك المال الذى وهبناه لك ما يقدرون به على مواجهة تكاليف الحياة ، ويدفعون به عن أنفسهم قسوة العوز والحاجة ؛ ثم تستطيع فى الوقت نفسه أن يكون تحت يدك مالٌ تنفقُ منه على نفسك وخدمك ، وعلى حمامك وقصرِكَ .

فقال أبو صير : يأمرك الزمان ، إن هؤلاء الممالك والجوارى والعبيد إنما يصلحون للملوك ، وإننى إن استطعتُ أن أنفق عليهم كان ذلك مما أعْدَقَ على مولاي ، فإن دخلى بعد ذلك مهنماً أكثر لا يكفي للإيقاع عليهم فى ما كلهم ومشرَبهم وملبسهم ، ولو كُنتَ — أعزك الله — أمرتُ لى

بمالٍ أَكْثَرَ ، لَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لِي .

فَضَحِكَ الْمَلِكُ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَمَلَى حَقًّا ، فَقَدْ صَارُوا جَيْشًا
جَرَّارًا ، وَأَنْتَ لَا طَاقَةَ لَكَ بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ ، وَلَسْتُ سَأُخْذُ مِنْكَ عَلَى
أَنْ أُعْطِيكَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِائَةَ دِينَارٍ ، فَهَلْ يُرْضِيكَ هَذَا ؟
قَالَ أَبُو صِيرٍ : نَعَمْ ، إِنَّهُ يُرْضِيَنِي بِأَسِيدِي .

فَأَمَرَ الْمَلِكُ خَازِنَ بَيْتِ الْمَالِ أَنْ يَنْقُدَ أَبَا صِيرٍ عَنْ كُلِّ عَبْدٍ وَمَمْلُوكٍ
وَجَارِيَةٍ مِائَةَ دِينَارٍ ، فَتَقْدَهُ الْمَالُ الَّذِي أَمَرَ الْمَلِكُ بِهِ .
ثُمَّ قَالَ الْمَلِكُ لِرَجَالِ دَوْلَتِهِ : كُلٌّ مِنْ لِهْ جَارِيَةٍ أَوْ عَبْدٍ أَوْ مَمْلُوكٍ ،
فَلْيَسْتَرِدَّهُ هَدِيَّةً مِنِّي .

فَامْتَلَأُوا ، وَأَخَذَ كُلُّ مِنْهُمْ عَبْدَهُ وَمَمْلُوكَهُ وَجَارِيَتَهُ .

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّانِي ، أَرْسَلَ أَبُو صِيرٍ مُنَادِيًا يَنَادِي فِي الْمَدِينَةِ :
« كُلٌّ مِنْ دَخَلَ الْحَمَامَ ، وَاغْتَسَلَ — لَا يَدْفَعُ إِلَّا مَا تَجُودُ بِهِ نَفْسُهُ ،
وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا مُعْسِرًا فَإِنَّهُ يَسْتَحِمُّ بِلَا أَجْرٍ » .

فَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الْحَمَامِ أَفْوَاجًا ، يَغْتَسِلُونَ وَيَسْتَحِمُّونَ ، وَالْقَادِرُونَ
مِنْهُمْ يَضْمُمُونَ فِي صُنْدُوقِ أَهْلِهِ أَبُو صِيرٍ لِلنَّقُودِ مَا تَجُودُ بِهِ نَفْسُهُمْ ؛
فَمَا أَمْسَى الْمَسَاءَ حَتَّى امْتَلَأَ الصُّنْدُوقُ بِالنَّقُودِ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ أَقْبَلُوا عَلَى الْحَمَامِ
لَشِدَّةِ اسْتِغْرَابِهِمْ ، وَلِأَنَّهُ جَدِيدٌ عَلَيْهِمْ ، وَكُلُّ جَدِيدٍ يَسْمَعُ بِهِ الْإِنْسَانُ
يُحِبُّ أَنْ يَرَاهُ ، وَخَاصَّةً أَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ مَلِكَهُمْ ذَهَبَ إِلَى الْحَمَامِ ؛ وَقَدَّرَ
صَاحِبُهُ ، وَفَرَحَ بِهِ ، وَأَجْزَلَ لَهُ الْعَطَاءَ ؛ فَكُنْتُ تَرَاهُ يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ جَمَاعَاتٍ

جماعات ، وعند خروجهم يضعون في الصندوق ما يستطيعون ، وكان أبو صير يلقاهم بالترحاب ، ويودّهم بالبشر والشور .
ولما كثر حديث الرجال والنساء عن الحمام ، أبدت الملكة رغبتها في رؤيته ، والاستحمام فيه .

فلما بلغ أبو صير ذلك قسم الوقت بين الرجال والنساء ، فجعل الاستحمام من الصباح إلى الظهر للرجال ، ومن الظهر إلى الغروب للنساء ، وعلم بعض الجوارى خدمة المستحجات فصرن وصيفات ماهرات .
عرف الملك ما فعله أبو صير ، فسرّه حسن تصرّفه ، وجعل تديره ، وأذن للملكة أن تذهب إلى الحمام في الوقت المعدّ للنساء ؛ فلما عرف ذلك أبو صير ؛ أخلى الحمام من الرجال جميعا ، حتى من ممالكه وعبيده وخدمه ، ولم يبق فيه إلا المواشط اللاتي استعددن لاستقبال الملكة ووصيفاتها

ولما حضرت الملكة سرت كثيرا من الحمام ونظامه ، ووهبت مواشطه كثيرا من الهبات .

وخرجت وكلها إعجاب بالحمام ، فأثنت على صاحبه ، وعلى القائعات عليه ، وأشادت بمناعمه ؛ وشاع بين الناس أن الملكة مسرورة كل السرور مما رأت وشاهدت ، فأحببت النساء أن يذهبن إلى الحمام كما ذهبت الملكة ، ووفذن عليه جماعات جماعات كما فعل الرجال ، وزحمن ردهات الحمام وأنهاء وحجراته ، وضائق عنهن مغاطسه ، واسكن حسن النظام جعلهن



يَسْتَحْمِنُ مُسْتَرِيحَاتِ هَانِثَاتِ نَاعِمَاتِ .

وأصبح أبو صير من كبار الأغنياء ، وانتثر الذهبُ بينَ يديه فائضاً عن حاجته ، وصار ذا مكانة مرموقة بينَ وجهاء المدينة وكبرائها ؛ وجميعُ أفراد حاشية الملك أصبحوا من خاصة أصحابه .

واتفقَ يوماً أن قصدَ بحارُ الملكِ إلى الحمام للاستحمام ، فخدمهُ أبو صير نفسه تكريماً له ، فلما همَّ بالانصراف أرادَ أن يدفعَ إلى أبي صير مبلغاً من المالِ ، فرفضَ أبو صير وأصرَّ على ألا يأخذَ منه شيئاً .

نفرجَ البحارُ وهو في حيرةٍ ؛ لأنَّ أبا صير حمّله جليلاً عدَّهُ كبيراً ، وفكرَ في أن يرُدَّ له جليله وهداهُ تفكيرُهُ إلى أن يُعِدَّ هديةً يهبها إلى أبي صير ، يرد بها صنيعه ؛ أو يقدمَ له خدمةً نظيرَ لطفه وإكرامه وبرِّه .

(٤)

تناثرت حول مسامع أبي قير أخبارُ الحمام الذي أنشأه الملك ، ومقدارُ تهافتِ الناسِ عليه ، وإعجابهم به ، ومدحهم له ؛ فذكرهُ ذلك بجحافات الإسكندرية ، وعقد عزمه على الذهاب للاستحمام فيه ، فلبسَ أغفر اللباس وركبَ جواداً مطَّهماً ، وأخذ معه أربعة مماليك ، وأربعة عبيدٍ يسيرُون من بين يديه ومن خلفه .

فلما وصلَ إلى الحمام طالعتهُ رائحةُ المودِ والتدِّ ، ورأى الفناء يزخر بجموع الناسِ : فهؤلاء داخِلون وهؤلاء خارجون ، وأولئك واقِفون

يَنْتَظِرُونَ دَوْرَهُمْ ، فَنَفَذَ إِلَى الدَّخْلِ ، فَشَاهَدَ الْمَصَاطِبَ وَقَدْ اِمْتَلَأَتْ بِأَكْبَرِ
رِجَالِ الدَّوْلَةِ ، يَحْتَسِبُونَ الْأَشْرَبَةَ السَّاخِضَةَ ، وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ وَيَتَفَكَّهُونَ ؛
فَسَرَتْ نَفْسَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ ، وَأَعْجِبَتْهُ مَظَاهِرُ الْعِظَمَةِ وَالْأَهَةِ الْبَادِيَةِ
عَلَى الْحَمَامِ ، كَمَا أَعْجَبَهُ جَمَالُ التَّنْسِيقِ ، وَحَسَنُ النِّظَامِ ؛ فَخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَرَى
أَنْفَحَ حَمَامٍ فِي الْإِسْكَندَرِيَّةِ .

وَفِيهَا هُوَ يَجُولُ بِنَظَرِهِ فِي أَرْجَاءِ الْمَكَانِ ، وَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى أَبِي صِيرٍ
الَّذِي كَانَ جَالِسًا بِجَوَارِ الصَّنْدُوقِ الْمَدَّةِ لِلتَّقْوَدِ ، وَقَدْ ارْتَدَى حِلَّةَ تَوْحَى
إِلَى مَنْ يَشَاهِدُهَا بِعَظِيمِ تَرَاءٍ صَاحِبِهَا ؛ وَمَا لَمَحَهُ أَبُو صِيرٍ حَتَّى خَفَتْ إِلَيْهِ
مَرْجَبًا ، وَقَدْ فَرِحَ بِهِ فَبَادَرَهُ أَبُو قَيْرٍ مَعَاتِبًا :

أَهَذَا شَرَطُ أَوْلَادِ الْحَلَالِ ؟ !

أَأَفْتَحُ لِي مَصْبَنَةً وَأَصِيرُ غَنِيًّا ، وَقَدْ تَعَرَّفْتُ بِالْمَلِكِ ، وَسَائِرِ
الْكُبَرَاءِ ، وَسَمِعْتُ إِلَى السَّمَاعَةِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ؛ وَأَنْتَ لَا تَأْتِي إِلَيَّ ،
وَلَا تَسْأَلُ عَنِّي ، أَلَا تَقُولُ أَيْنَ رَفِيقِي ؟ !

أَنَا أَفْتَشُ عَنْكَ ، وَأَبْعَثُ عِبِيدِي وَمَمَالِكِي لِلْبَحْثِ عَنْكَ دُونَ جَدَّوَيِ
وَدُونَ أَنْ نَعْتَزَّكَ عَلَى أَثَرٍ ، أَوْ يُرْشِدَنَا أَحَدٌ إِلَى مَكَانِكَ .

لَقَدْ عَجَزْتُ وَيَتَسَبَّحُ ، وَرَجَعْتُ أُنْكَ قَدْ رَجَعْتَ إِلَى
الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَطَنُنَا .

فَقَالَ أَبُو صِيرٍ . وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الْعَجَبُ مِنْ كَلَامِهِ : أَمَا جِئْتُ إِلَيْكَ ،
فَاتَهَمْتَنِي بِأَنِّي لَيْسَ ، وَضَرَبْتَنِي ، وَفَضَحْتَنِي بَيْنَ النَّاسِ ؟ !

فأظهر أبو قير الأسف والكدر ، وقال : ما هذا الكلام ؟ أنت الذى ضربت ؟

فقال أبو صير : نعم ، هو أنا .

فأقسم له أبو قير بالإيمان المملّطة أنه ما عرفه ، ثم قال : إنما كان هناك رجل يُشبهك شكلاً ولوناً وطولاً وملبساً ؛ يأتى كل يوم ، ويسرق ملابس العملاء ؛ فظننتُ أنك هو ؛ لأنى بمجرد وقوع نظرى عليك لم أفكر إلا فى ألا تتقام من هذا اللص الذى يُزعجنى ويُزعجُ حرفائى بسرقة ملابسهم ، وإحراجى معهم ؛ ويجوز يا أخى أنى لو كنتُ تهملتُ قليلاً وأنعمتُ النظر فى وجهك وملاحك — لعرفتُك .

وأخذ يضربُ كفّاً على كفّ ، ويقول :

لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، قد أسأنا إليك يا أخى والله ولكن ؛ ياليتك عرفتنى نفسك ، وقلت لى : « أنا فلان » ؛ فالعيبُ عندك لأنك لم تُخبرنى ، فقد كنتُ أنا مشغولاً عن التأمل فىك من كثرة الأعمال .

فقال أبو صير ؛ ولم تفارق شفّيته ابتسامة اللقاء : ساعحك الله يارفيق وغفر الله لك يا صديقى ؛ وما كان هذا إلا مُقدراً لى . أدخل ، وأخلع ثيابك ، وأستحم يا أخى .

لم يسارع أبو قير إلى الحمام ، ولكنه ظلّ يحدثُ أبا صير ، ويسأله :

ومن أين لك كل هذه السعادة يارفيق ؟

قال أبو صير : الذى فَتَحَ عَلَيْكَ فَتَحَ عَلَىَّ ، فقد قصدتُ الملك ،
وخطبتُهُ فى شأنِ إقامة الحمام ، فأمر لى ببنائه .

فقال أبو قير : إن لى صلةٌ قويةٌ جدًّا بالملك ، وسأتحدثُ إليه فى
شأنِكَ ، وأوصيه بك خيرًا ، كى يزيد فى إكرامك ، ويُبالغ فى العطف
عليك .

فقال أبو صير : إنَّ اللهَ معى ، وقد حبَّانى الملكُ بعطفٍ كبيرٍ ، هو
ورجالُ دولته ، وأكرمونى ، وبالنوا فى إكرامى ، ومنحونى هباتٍ
سخيَّة .

ثم قصَّ عليه جميعَ أخبارِهِ ، وهو يستمعُ إليه فى اهتمامٍ ؛ ثم قال له :
والآن هيا إلى الحمام .

فدخل أبو قير ، وخلعَ عنه الملابس ، وأوصى أبو صير به رجاله ، فاعتنوا به
عناية خاصة ، وبقيَ هو قريبًا منه ، لا ينفى عن إظهارِ فرجه به ، وإكرامِهِ
له ؛ وأخيرًا صحَّبه إلى الفراش ، وقَدَّمَ له الشرابَ ، ثم أعقبَهُ بطعامٍ لذيذٍ
شهى ، ولازمه جميعَ يومه ، لا يكفُّ عن الترحيب به ترحيبًا جعل جميعَ
الذين شاهدوه يحبون من حسنِ معاملته له ومبالغته فى حفاوته به .

وقال أبو قير لأبى صير : واللهِ يارقيقى إن هذا الحمامَ عظيمٌ جدًّا ،
وهو لا يقلُّ عن أفنمِّ حمام فى الإسكندرية ، ولكن ينقصك شئٌ ؛
قال أبو صير : وما هو ؟

قال : هو مُرْكَبُ الزرنيخ والجير الذى يساعدُ على نظافةِ الجسمِ ،

فأصنعه وأعدّه ، حتى إذا ما حضرَ الملكُ قَدَّمَهُ له ، وعَرَّفَهُ كيفَ يستعملُهُ ،
فلأنه إذا استعملَهُ ارتاحَ له ، وزادتْ محبته لك .

فقال أبو صير : صدقتَ ، سأصنعُ هذا الدواءَ إن شاء الله ، وأقدِّمه
إلى الملكِ حينما يُشرفُ الحمامُ في الأسبوعِ القادمِ .

ولما تأهَّبَ أبو صيرَ للانصرافِ أرادَ أن يعطىَ أبا صيرَ أجرَ
استحمامه ، ولكن هذا رفضَ قائلاً : كيفَ يخطرُ ببالكَ أن تدفعَ لى
شيئاً ؟ ألسنا أخوين ، لا يُفِرُّ بيننا فارقٌ ؟ وانصرفَ أبو صيرَ من لدنِ
أبي صيرَ وقد ملأَ الحقدُ والحسدُ قلبه عليه ، لما عاينَهُ من اتساعِ ثروته ،
وما نالَهُ من حُظوةٍ عظيمةٍ عند الملكِ ، ولم يستطعَ من فرطِ ما به من غِلٍّ ،
العودةَ إلى مصبغته قبل أن يذهبَ إلى الملكِ فينفثَ فيه من سمِّه .

فتوجَّهَ من فورِهِ إلى قصرِ الملكِ ، وطلبَ مقابلته ، فأذنَ له ، فلما
حظى بها ، قال للملكِ : إني حضرتُ إليك يا ملكَ الزمانِ على غيرِ موعدٍ ،
وفي وقتٍ غيرِ مناسبٍ ، لأنى عرفتُ أمرَ أُمِّهِ وشغلَ بالى ، وكان
واجباً علىَّ أن أسرعَ إليك ، لأَقفَكَ على ما عَلِمْتُ ، وأقدمَ لك النصيحَ ؛
فقد أسبغتَ علىَّ من نعيمِكَ ، وأصفَيْتَ علىَّ من معروفِكَ ، ما يُوجبُ
علىَّ أن أكونَ مخلصاً لك ، مسرعاً إلى إبداءِ ما عندى من نصيحةٍ .

قال الملكُ : هاتِ نصيحتَكَ

قال : لقد بلغنى أنك قد بنيتَ حماماً

قال الملكُ : نعم ؛ لقد أتانى رجلٌ غريبٌ ، وبَيَّنَ لى محاسنَه ،

فَأَنْشَأَتْ لَهُ كَمَا أَنْشَأْتُ لَكَ الْمَصْبَغَةَ ، وَهُوَ حَمَامٌ عَظِيمٌ أَزْدَانَتْ بِهِ مَدِينَتِي
وَأَخَذَ الْمَلِكُ بِسَرْدُ لَأَبِي قَيْرٍ مُحَاسِنَ الْحَمَامِ وَفَوَائِدِهِ
فَقَالَ أَبُو قَيْرٍ : وَهَلْ دَخَلَتْهُ يَا مَلِكُ الزَّمَانُ ؟

قَالَ : نَعَمْ

قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّاكَ مِنْ شَرِّ صَاحِبِهِ الْخَلْبِيثِ ، عَدُوِّكَ وَعَدُوِّ
الدين .

فَعَجِبَ الْمَلِكُ مِنْ قَوْلِهِ ، وَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانِي مِنْ شَرِّ صَاحِبِهِ
الْخَلْبِيثِ ، عَدُوِّي وَعَدُوِّ الدِّينِ . . مَا هَذَا الَّذِي تَقُولُهُ يَا أَبَا قَيْرٍ ؟
قَالَ الْحَقُودُ : أَعْلَمُ يَا مَلِكُ الزَّمَانُ ، أَنَّكَ إِنْ دَخَلْتَ الْحَمَامَ بَعْدَ هَذَا
اليَوْمِ ، فَإِنَّكَ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ .

فَازْدَادَ عَجَبُ الْمَلِكِ وَقَالَ : أَأَنْتَ جَادٌّ فِيمَا تَقُولُ ؟

قَالَ : إِنَّ هَذَا الْحَمَامِيُّ عَدُوٌّ لَكَ ، كَمَا هُوَ عَدُوٌّ لِلدِّينِ ، وَإِنَّهُ مَا أَنْشَأَ
هَذَا الْحَمَامَ إِلَّا لِيَبْلُغَ عَنْ طَرِيقِهِ غَرَضَهُ ؛ فَإِنْ لَدَيْهِ سِمَةٌ قَاتِلَةٌ ، يَبْنِي بِهِ
قَتْلَكَ ، وَهُوَ يَرْوُمُ أَنْ يَقْدِمَهُ لَكَ عَلَى أَنَّهُ دَوَاءٌ يُسَاعِدُ عَلَى نِظَافَةِ الْجِسْمِ ؛
فَإِذَا دَلَّكَ بِهِ الْجِسْمُ ، نَفَذَ إِلَى دَاخِلِهِ مِنَ الْمَسَامِ ، وَلَا يَنْقِضِي عَلَى ذَلِكَ يَوْمٌ
وَلَيْلَةٌ ، حَتَّى يَكُونَ قَدْ سَرَى السَّمُّ مَعَ الدَّمِ إِلَى الْقَلْبِ ، فَيَهْلِكُ مُسْتَعْمَلُهُ ؛
وَاسْتَمَرَ أَبُو قَيْرٍ يَفْعَحُ فَحِيحَ الْأَفْعَى ، وَيَقُولُ :

وَالسَّرِّ فِي ذَلِكَ يَا مَلِكُ الزَّمَانُ ، أَنَّهُ يَرِيدُ فِدَاءَ زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ مِنْ
أَسْرَمَلِكِ النَّصَارَى ، إِذْ وَعَدَهُ هَذَا الْمَلِكُ أَنْ يَفُكَّ أَسْرَهُمْ إِنْ قَتَلَكَ .

وسببُ معرفة هذا الخبر أني كنتُ أسيرًا معه ، فأخذتُ أصبغ لحاشية الملك ملايسهم بالألوان الجميلة التي أتيقنها ، فأحبوني ، وخاطبوا الملك في شأني ، فقال لي : ما الذي تطلبه ؟

فطلبتُ أن يطلقني من الأسر ، فأطلقني .

وحضرتُ إلى مدينتكم ، وفتحتم لي المصنعة ، واليوم ذهبت إلى الحمام ، بعد أن سمعتُ الناس يلهجون بالثناء عليه ؛ ففوجئتُ برؤية صاحبه الحمائي ، إذ عرفتُ أنه هو زميلي في الأسر عند ملك النصاري ، فقرحتُ بخلاصه ، وسألته : كيف أطلق سراحك أنتَ وزوجتك وأولادك ؟ . فقال لي : لم أزل أنا وزوجتي وأولادي مأسورين عند ملك النصاري . وذات يوم عقد الملك مجلسا ، وكنتُ حاضرا مع بعض الناس ، فسمعتُ جلساء الملك يتشاورون ، ويتداولون في أمور الدولة وشئوننا ، وصلتهم بالبلاد المجاورة وملوكها ، وأخذوا يخوضون في أحاديث كثيرة ، حتى جرهم الحديث إلى ذكر ملك هذه المدينة ، فحينئذ قال الملك وهو يكاد يتميز من الغيظ : ما قهرني في الدنيا غير هذا الملك ، فإن وجدتُ من يتحارب على قتله ، ويقتله — أعطيته كل ما يطلب — ولو كان يطلب نصف ملكي .

فتقدمتُ أنا منه ، وقلتُ له : إذا احتلتُ أنا على قتله وقتلته ،

أطلق سراحى أنا وزوجتى وأولادى ؟

قال الملك : نعم ، أطلق سراحكم جميعا ، وأعطيك كل ما تمنى على .

قم الاتفاقُ بيننا على ذلك ، وأرسلني على أوّل سفينة آتية إلى هذه البلاد ؛ فلما وصلتُ ، ذهبتُ إلى الملك ، وأخبرتهُ بشروع الحمام ، فأعجبه ووافقَ عليه ، وأنشأ لي ، والآن ليس أمامي إلا أن أعتله ، وأذهب إلى ملك التصاري ، فأفك إيسار أسرتي ، وأتمنى عليه .

فسأله عن الطريقة التي سيعتمد إليها في قتلك ، فقال : إنه قد أعدّ سماً قاتلاً ، يُدلك به الجسم ، فينفذ إليه ، فيقتلُ مستعمله ؛ وهو الذي أخبرتك عنه ؛ فما سمعتُ منه هذا الكلامَ حتى أسرعُ بالجمي إلىك لأحذرك ؛ لأنّ صنائيمك عندي كثيرة ، وعواريفك على سابقاته ، وخبرك لي كثير ، فأنا أتقلبُ في نِمتك ، وأنعمُ بمطفئك ، وحياتي موصولةٌ بحياتك ، وعيشي مرتبطٌ بعزتك وجاهك ، فإنّ مسك مسوومٌ مسقى ، وإنّ أصابك ضرٌّ أصابني ؛ فإذا كتمتُ عنك هذا السرّ ، كنتُ خائناً أستحقّ سخطَ الناسِ وعذابَ الله .

وما انتهى أبو قير من كلامه ، حتى كان الملك في أشدّ حالاتِ الاستفزازِ والغضبِ نائرَ الأعصابِ ، محتقنِ الوجه ، يكاد يطرُقُ الدمُ من عينيه غيظاً ؛ فجاهد نفسه ، وغالبَ عاطفته ، ثم قال لأبي قير بصوتٍ حاول أن يجعله هادئاً : اكتمُ هذا السرّاً أباً قير ؛ ولم يزد على ذلك كلمةً واحدةً ؛ وانصرف أبو قير مسروراً ؛ لأنّه دبر مكيده ، يقضي بها على أبي صير ، ناسياً للمرة الثانية ما كان يتهمهما من عهود ومواقف ، أحكمت بالآيمان المُغلظة .

وكان الملك يذهب إلى الحمام مرة في كل أسبوع على ما قدمنا ،
ولكنه لم يستطع الانتظار إلى اليوم الذي اعتاد الذهاب فيه .

فما أصبح اليوم التالي حتى غزم على الذهاب إلى الحمام ، ليقطع الشك
باليقين ، ويقف على حقيقة ذلك الخبر الذي نقله إليه أبو قير .

وكان أبو صير سريعاً نشيطاً في صنع الدواء الذي أُرشدَهُ إليه أبو قير ؛
فإنه لما كَانِ يخرج من عنده حتى عمد إلى شراء أجزاء الدواء وتركيبه ، ثم
ما كان أشدَّ سروره واعتباطه ، حين حضر الملك على غير ميعاد ، وقد
فرغ هو من الدواء الذي أعده هديةً له .

وصاحب أبو صير الملك إلى المقصورة المعدّة له ، وشرع في مهمته
معه على عادته ، ثم قال للملك ، وقد تهلّل فرحاً : يا ملك الزمان ، لقد
صنعتُ لك دواءً جديداً يساعد على نظافة الجسم

فقال الملك ، وقد أيقن صدق أبي قير : أحضره لي

فسارع أبو صير إلى إحضاره ، فأخذه الملك منه ، وشَمَّ رائحته ،
فوجدَهَا رائحة كريهة ، فتأكّد أنه سُم قاتلٌ . وثبتَّ عنده أن الحمائم
يُرِيدُ قتله .

فارتدى ملابسه ، وقد احتدم برأسه الغضب ، ثم أمر جنوده
بالقبض على أبي صير .

قبض الجنودُ عليه ، وهم لا يعرفون لعُصَبِ الملك سبباً .

وحاد الملك وجنوده مصطحبين أبا صير معهم إلى القصر ، ولا يحسُرُ
أحدٌ أن يسأل الملكَ عن سببِ غَضَبِهِ ، لشدةِ ما اعتراه من التغير .
وعقد الملك من فوره مجلساً ، وأمر بإحضار بحاره الأول ، فلما
حضر قال له :

خذ هذا اللعين الخائن الغدار (وأشار إلى أبي صير ، وكان مؤثماً
بالجبال رملق على الأرض) ، وضعه في غرارة كبيرة ، وضغ معه فيها
قنطارين جيراناً حياً ، وأغلق فم الغرارة جيداً ، وضغها في زورق ، واحضر
بها تحت نافذتي ، حيث تجدني أطلّ عليك ، وأشير لك على المكان
الذي تُلقيها فيه بالبحر ، ليدخل الماء في الغرارة ، فينطفئ الجير الحى على
هذا الخائن ، ويموت غريقاً حريقاً .

فقال البحار : سمعاً وطاعة يا ملك الزمان .

وأخذ البحار أبا صير ، وذهب به إلى جزيرة في الضفة المقابلة لقصر
الملك ، وقال له : يا هذا ، أنا جئت عندك في الحمام مرة ، فأكرمتني غاية
الإكرام ، وخدمتني أجلّ خدمة ؛ لذلك أحبتك ، وأعظمتك وأكبرتك
لما لمستك فيك من طيب القلب ، وصفاء السريرة ، فأخبرني : ما ذنبك
لدى الملك ؟ وأى شيء أتيت حتى غضب عليك كل هذا الغضب ، وأمر
بأن تموت تلك الميتة الشنيعة ، التي لم يحكم بها على أحد من قبلك ؟ !

فقال أبو صير : والله ما عملت شيئاً يُغضب الملك ، ولا أعرف لى
ذنباً جنيته ، ولستكنى مخلص له دائماً ؛ فهو سيدي وولي نعمتي ، وهو

الذى أنشأ لي الحمام ، وشجّني بما أعطاني من المال ؛ فلعلّ في الأمر سرّاً لا أعرفه .

فقال البحارُ : لقد كان لك عندَ الملكِ منزلةٌ كبيرةٌ ، ما نالها أحدٌ من قبلك ، وكلّ ذِي نعمةٍ محسود ، فلعلّ أحداً قد نفّسَ عليك ما نلته من النعمةِ والجاءِ ، فدرسَ وشايةً عليك عندَ الملكِ ، فغضبَ كلّ هذا الغضبِ ؛ ولكنّ ، لا بأسَ عليك ، فأنتَ رجلٌ كريمٌ صادقٌ ، وقد اقتنمتُ بقسمِكَ أنّكَ برىءٌ ، وسأخلّصُك أنا جزاءَ إكرامِكَ لي ، ومَعروفِكَ عندي ، وليس أُمَامِي طريقةً أخلصُك بها إلا أن تُقيمَ في هذه الجزيرة ، مُخْتَفِياً في زِي صائِدٍ مِمِّكَ ، حتّى تُصادفني سفينةٌ مسافرةٌ إلى بلادِكَ ، فأرسلُك مَعَهَا ، وتنجو بحياتِكَ ، وتخلصُ من ميتةٍ شنيعةٍ ، هيأما لك الملكُ ؛ وإنّ الناسَ الطيّبينَ مثلك ، الذين سلّمتْ قلوبُهُم ، وصفتْ سرائِرُهُم ، وحسّنتْ نيّاتَهُم ، وطابتْ صدورُهُم ، لا يستطيعون أن يعيشوا في كنفِ الملوكِ .

فقبّل أبو صير يدَ البحارِ ، وشكّره على مروءتِهِ ومَعروفِهِ ، وهو يشكّي تأثراً بما غمره به من فضل .

وأحضر البحارُ لأبي صير شبكةً ، وقال له :

أرْمِ هذه الشبكةَ في البحرِ ، لعلّكَ تصطادُ شيئاً ، تُرسلُهُ إلى مطابخِ الملكِ ، فأنا الموكَّلُ بها ، وسأذهبُ أنا لأختالَ على قضاءِ المهمّةِ التي أمرني بها الملكُ .

فقال أبو صير : سمّما وطاعة ، اذهبْ أنتَ والله مَعَكَ .

فذهبَ البَحَّارُ وأحضرَ غرارةَ كبيرةً ، وضعَ فيها حجراً كبيراً ، ثم
ملأها بالجير وأغلقَ فَمَها بِرِباطٍ محكمٍ ، ووضعها في زورقٍ ، وسارَ به في
البحرِ مُتَجِباً نحوَ قصرِ الملكِ .

وشاهدَ الملكُ جالساً بنافذةِ القصرِ ، يرتقبُ حضورَه ، فاقترَبَ حتى
صارَ أسفلَ النافذةِ ، وقالَ للمَلِكِ : يا مَلِكُ الزمانِ ، لقدَ فعلتُ
ما أُمِرْتُ بهِ .

فقالَ المَلِكُ : وهو يُشِيرُ يَدِهِ : أَلَتِه هُنَا تَحْتَ نافذةِ قَصْرِى ،
ليُوتَ غَرَقاً وحرَقاً أَمَامَ عَيْنِى ، وبينما المَلِكُ يَطْلُوعُ يَدَهُ مشيراً للقبطانِ ،
سَقَطَ مِنْ يَدِهِ إلى البَحْرِ شَيْءٌ يَلْمَعُ ، وكانَ هذا الشَيْءُ الذى لمعَ وسَقَطَ هو
خاتَمُ الملكِ ، وكانَ خاتماً مرصوداً ، ما هابَهَ ملوكُ البلادِ ، وسائرُ الناسِ
إِلَّا بهِ ، وكانتَ خاصيتهُ أَنه إذا أرادَ أَن يُمَيِّتَ أَحداً لِساعَتِهِ ، أشارَ عليهِ
بِخاتَمِهِ ، فيخرجُ مِنْهُ بَارقٌ يصيبُ المَشارِ إليه ، فيُصَنِّقُ لَوَاقِحَهُ .

فكتمَ المَلِكُ في نَفْسِهِ خَبَرَ ضِياعِ الخِتامِ ، ولم يَجْشُرْ حتى على إرسالِ
خَدَمِهِ لِلبَحْثِ عَنْهُ ، خِفافَةً أَن يَنْتَشِرَ خَبَرُ ضِياعِهِ ، فلا يعودُ يهابُهُ أَحَدٌ ،
وَيَفْقِدُ مُلْكَهُ .

أما أبو صيرٍ ، فإنه بعدَ أَن تَرَكَ البَحَّارُ أخذَ الشبْكَهَ ، فطَرَحَها في
البحرِ ، ثم جَذَبَها ، فخرَجَتْ ، وهى مملوءةٌ بالسَمَكِ ، فطَرَحَها ثانيةً ،
فخرَجَتْ كذلكَ ؛ وما زالَ يَطْرَحُها ويَجْذِبُها ، وهى تخرجُ مملوءةً
بالسَمَكِ ، حتى صادَ كِبَةً كبيرةً مِنْهُ ، فَنَاقَتْ نَفْسَهُ إلى سَمَكِيَّةٍ يشويها

وَيَا كُلُّهَا ، فَاتَّقَى وَاحِدَةً ، وَقَطَّعَهَا بِسَكِينَةٍ ، حَتَّى إِذَا مَا عَادَ الْبَحَارُ ،
اسْتَأْذَنَهُ فِي شَيْبَا ، فَأَذِنَ لَهُ ، وَبَيْنَمَا هُوَ يَمْجِزُهَا عَلِقَ طَرَفَ السَّكِينِ
بِحَيْشُومِهَا ، فَحَاوَلَ إِخْرَاجَهُ ، فَلَمْ يَخْرُجْ ، فَنَظَرَ فَرَأَاهَا عَالِقَةً بِخَاتَمٍ دَاخِلِ
خَيْشُومِ السَّمَكَةِ ، فَمَجِبَّ أَبُو صِيرٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَخْرَجَ الْخَاتَمَ وَلَبَسَهُ
فِي إصْبَعِهِ .

وَكَانَ هَذَا الْخَاتَمُ هُوَ خَاتَمُ الْمَلِكِ الَّذِي سَقَطَ فِي الْمَاءِ مِنَ الْمَلِكِ حِينَ
كَانَ يُشِيرُ إِلَى الْبَحَارِ ، ابْتَلَعَتْهُ هَذِهِ السَّمَكَةُ ثُمَّ مَرَّتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْمَكَانِ
الَّذِي يَصِيدُ بِهِ أَبُو صِيرٍ فَوَقَعَتْ فِي شَيْكِنَتِهِ .

وَبَيْنَمَا أَبُو صِيرٍ جَالِسٌ يَنْتَظِرُ حَضُورَ الْبَحَارِ ، إِذْ أُقْبِلَ عَلَيْهِ غُلَامَانِ
مِنْ خَدَمِ مَظَاهِيخِ الْمَلِكِ يَرْوِمَانِ السَّمَكَ ، فَرَأَى أَبَا صِيرٍ جَالِسًا بِجَانِبِ
السَّمَكِ ، وَلَمْ يَمْحِدا الْبَحَارَ ، فَتَقَدَّمَا مِنْهُ وَسَأَلَاهُ :

يَا رَجُلَ ، أَيْنَ ذَهَبَ الْبَحَارُ ؟
قَالَ : لَا أَعْلَمُ .

وَطَوَّحَ بِيَدِهِ إِلَى يَمَانِ الْخَاتَمِ نَحْوَهَا ، فَإِذَا بِهِمَا قَدْ سَقَطَا إِلَى الْأَرْضِ .
فَدَمَشَ أَبُو صِيرٍ لِأَمْرِهِمَا ، وَقَامَ إِلَيْهِمَا فَوَجَدَهُمَا جَثَّتَيْنِ هَامِدَتَيْنِ ،
فَتَأَسَّفَ وَتَحَسَّرَ عَلَيْهِمَا ، وَجَلَسَ يَحْصَانُهُمَا يَفْكُرُ فِي حَيْرَةٍ فِي
سَبَبِ مَضَرَّتِهِمَا .

وَبَعْدَ لَحْظَةٍ أُقْبِلَ الْيَحَارُ فَرَأَى أَبَا صِيرٍ جَالِسًا بِجَانِبِ كَوْمَةِ السَّمَكِ ،
وَبِجَانِبِهِ الْغُلَامَانِ الصَّرِيحَانِ ، وَلَمَحَ الْخَاتَمَ يَبْرُقُ فِي إصْبَعِ أَبِي صِيرٍ ، فَعَرَفَ

فيه خاتم الملك ، فأدرك ما حصل ، وابتدر أبو صير قائلا :
 لا تحرك يدك التي بها الخاتم تحوي ، فإنك إن فعلت ذلك قتلتني .
 فتحير أبو صير من هذه الأحاجي ، ونظر إلى البحار مستفسرا ،
 فقال البحار :

من الذي قتل هذين الغلامين ؟
 قال أبو صير : والله يا أخي ما أدري !! أقبل عليّ ، وسألاني عنك ،
 فأخبرتهما أنني لا أعرف مكانك ، ولم أكد أنتهي من كلامي حتى رأيتهما
 صريعين كما ترى .

قال البحار : أخبرني من أين وصل إليك هذا الخاتم الذي بأصبعك ؟
 قال أبو صير ، وجدته في خيشوم هذه السمكة .
 وأراه السمكة المشقوقة .

فقال البحار : صدقت ، فقد رأيت الخاتم وهو يسقط من يد الملك
 حين أشار بيده إلى المكان الذي أراد إلقاء الغرارة فيه ، فلا بد أن هذه
 السمكة قد ابتلعتة ، ثم وقعت في شبكتك ، فوجدته فيها ، فأصيح من
 نصيبك ، ولكن أتعرف خواص هذا الخاتم ؟
 فقال أبو صير : والله لا أعرف له خواص .

قال البحار : اعلم أن هذا الخاتم مرصود ، فإذا ما غضب الملك على
 أحد ، وأراد قتله أشار به عليه ، فيخرج منه شعاع يصيب المفضوب

عليه ، فيسقط من فورِهِ على الأرضِ صَريماً . ففَرِحَ أبو صير فرحاً شديداً
لحصولِهِ على هذا الخاتم ، وقال للبحار :
عُدْ بِي إلى المدينةِ يا سيدي .

فقال البحارُ : سأعودُ بك إلى المدينةِ ، ولا أخافُ عليكِ مِنَ الملكِ
بعدَ حُصولِكَ على هذا الخاتم ، لأنَّكَ إِن أردتَ قتلَ أَيِّ إنسانٍ
أمكنَكَ قتله .

ثم أنزله إلى الزورق وعاد به إلى المدينة .

- ٥ -

دخل أبو صير المدينةَ ، وذهب إلى قَصْرِ الملك ، وكان الملكُ جالساً
في ديوانِهِ ، فتمكَّنَ من الدخولِ عليه ، فرآه جالساً ، يُحيطُ به رجالُهُ
وعساكرُهُ ، فنظر إلى وَجْهِهِ فرأى علاماتِ الحزنِ الشديدِ مرتسمةً
عليه ، وبدا في نظراتِ عينيه وحركاته قلقٌ شديدٌ لفقدِهِ الخاتمِ ولا سيما
أنه ليس له أملٌ في العثور عليه .

وما وَقَعَ نظر الملكِ على أبي صير ، حتى صاحَ فيه غاضباً مهتاجاً ثائراً :

أما أَلْقَيْناكَ في البَحْرِ ؟ ما الذي أخرجَكَ مِنْهُ ؟

فقال أبو صير : جِئْتُك يا ملك الزمان ، إنَّكَ لما أمرتَ بِإِلْقائي ،
أخذني بِحمارِكَ إلى جزيرةٍ ، وسألني عن سببِ غَضَبِكَ مِنِّي ، وسُخِطَكَ
عليّ ، فأخبرتُهُ أَنِّي ما فعلتُ شيئاً ، فلم أرتكبْ ذنباً ، ولم أقتربْ إنمّا ،

فقال لى : إن منزلتك كانت كبيرة عند الملك ، فلا بُدَّ أن أحداً حسدك ،
ووشى بك عنده ، حتى غَضِبَ عليك ، ولكنى سأخْلُصُك وأرجعك إلى
بلادك مكرِّماً ، كما أكرمتني حينما حضرتُ عندك في حمامك ، ووضع في
الغرارة بدلا منى حَجَرا ، ورمها في البحر عندما أمرته بذلك ، ولكنك
حين أمرته أن يرمى بالغرارة التي كنتَ تظُنُّ أنى فيها سقطَ من يدك
خاتمك ، فابتلعته سَمَكَة ...

ثم أخذ يقص عليه قصته ، حتى أتى إليه .

وقال : وإنى قد حضرتُ لأرُدَّ لك الخاتم ، لأنك كنت قد فعلتَ
معى معروفا لم يصنعه غيرك وأكرمتني ، وبالغت في إكرامى ، وأنا لذلك
أحببتُك وأعزَّزتُك ، وتعلق قلبي بك ، وأخلصتُ لك الإخلاصَ كله ،
فاخطر ببالى أن أكونُ ضدك ، أو حربا عليك ، ولم أضمر لك سوءا
في يومٍ من الأيام ، فأنتَ ولى نعمتى ، وسببُ سعادتى ؛ ولكن هذا
التغيرُ المفاجيء الذى رأيته منك أذهشنى ، وجعلنى في حيرة ؛ ولم تمنحنى
فرصة أستطيع أن أسأل فيها عن سببِ غَضَبِكَ علىَّ ، وإنكارك لى ، حتى
أمرتَ بقتلى حرقا وغرقا .

فهو أستطيعُ بعد ذلك كله أن أتفَ على سببِ غَضَبِكَ علىَّ ، وعلى
ذنبي الذى ارتكبته ، وإن لك يا ملك الزمان بعد هذا أن تقتلنى ، وتُمَثِّلَ
بى إن أردت .

ثم خلع الخاتم من إصبعه وأعطاه للملك .

فلما رأى الملك ما فعله أبو صير ، وكان قادراً على قتله لو أراد ، كبر في عينيه ، ونهض إليه ، وعانقه وقبله .

ثم لبس الخاتم ، وقد كاد يطير من شدة الفرح ، وقال لأبي صير ، وقد أيقن من براءته : يا رجُل ، إنك لأنبلُ شخصٍ قابلته ، فلو كان أحدٌ غيرك ملك هذا الخاتم لما أعطانيه ، فكيف بك ، وقد عثرت عليه بعد أن ظلمتُك ، فأمرت بقتلك على صورة بشعة شنيعة ، فينجيك البحار لما أسديت إليه من معروف ، ثم تعود وتردّ إلى هذا الخاتم وتنسى أنني قد أسأت إليك ؛ يا لك من إنسان مثالي في خُلُقك ! ولقد ثبتت عندي بفعلك هذا أنك برئ ؛ فالحمد لله الذي نجّاك مما أردناه لك من سوء ؛ والآن ، أرجو أن تنفّر لي ذنبي ، فقد أسأت بك الظن ، وصدقت وشاية الوشاة ، فسامحني يا أخي ، ولك عندي ما تشاء .

فقال أبو صير : يا ملك الزمان ، ما زلت أليح في أن أعرف سبب غضبك عليّ حتى أمرت بقتلي ، فإنك إن فعلت زال ما في نفسي .

قال الملك : إنما هي وشاية وشاها إلى الصباغ ، حيث قال وأخبره بجميع ما قاله الصباغ .

وانصت أبو صير إلى قول الملك ، وقد ساء جداً أن يكذب عليه أبو قير .

ولما انتهى الملك من سرّ حديثه ، كان أبو صير في أشدّ حالات الحق والاشمئزاز من خُبث نفس أبي قير ، ولؤم طبعه ، وانحطاط خُلُقهِ ،

فقد جازاه أسوأ مجازاة بعد كل ما قدم إليه من معروف ، ونسى أنه تركه في الخان مريضاً ، وسلبه نقوده وخرج ، ثم رحّب به حيناً رآه في الحمام وأكرمه ، ولكنه بعد ذلك كله يئس به عند الملك وشاة تؤدى بحياته .

فقال للملك : والله يا ملك الزمان ، إنى لا أعرفُ ملك النصارى ولم أذهب إلى بلاده في حياتي ، ولكن هذا الصباغ كان رفيق وجارى في مدينة الإسكندرية و... وقصّ عليه قصته معه ، وكيف كان يجرى وراء رزقه ، ويطعمه وهو نائم في الخان ، ثم كيف تركه مريضاً ، وأخذ نقوده ، ثم ما كان من ضربه له عند ذهابه إليه في المصبغة ، وادّعائه عليه بأنه لص ، ثم حضوره إلى الحمام ، وما قاله له عن الدواء .

واختتم أبو صير حديثه ، باستشهاده بيّواب الخان ، وبعمال المصبغة ، وطلب استدعائهم ، لسمع الملك منهم ما رآوه وما سمعوه .

فأمر الملك باستدعائهم ، فأحضروا ، وسمع أقوالهم ، فأيدوا كلام أبي صير ، وأيقن الملك أنه صادق ، وأنه رجل فيه إنسانية ، وفيه خير ، ومن كان مثله يُنجيه الله من كل ضيق يقع فيه ، ومهما حاول غيره أن يؤذيه ، فإن الله يُنجيه .

أمر الملك جنوده بالمسارعة إلى القبض على أبي قير ، وإحضاره موثقاً بالحبال ، مكشوف الرأس ، حافى القدمين .

وكان أبو قير جالساً في منزله ، مسروراً لنجاح مكيدته التي كادها

لأبي صير ، وأدّت إلى قتله ؛ ولم يُؤنّبهُ ضميره على أنه آذَى رجلاً كان يُحسِنُ إليه .

فما شعر إلا والجنود قد أحاطوا بداره ، واقتلعوه من مكانه ، فغارل أن يستفهم عن سببِ مفاظتهم له ، واشتدّاهم عليه ؛ فما أجابوه إلا بالضرب بالعصى والصفع على القفا ، والرّكل بالأقدام ، ولم يخف عنه صراخ ولا عويل ، ولا استغاثة ولا استرحام .

وما زالوا به يسوقونه أمامهم سوقَ الأنعام حتى أوصلوه إلى قصر الملك ، فرأى أباصير جالساً بجانبه ، وأمامهما بوابُ الخان ، وعمال المصبغة .

فأشارَ الملك إلى الشهود ، أن يتكلموا ، فقال بواب الخان لأبي صير : أليس هذا رفيقك ، الذي سرقتَ نقوده ، وتركته في الحجرة مريضاً عليلًا لا يقوى على الحركة ، حتى كشفتُ أنا مرضه ، ولولا لطفُ الله ، لمات جوعاً داخلَ الغرفة التي أغلقتها عليه ، وظل فيها حبساً ثلاثة أيام يئنّ ويتوجع ؟

وقال عمال المصبغة : أليس هذا الذي أمرتنا بضربه ، على أنه لص ، وما رأيناه سرّقت شيئاً ، وقد كان ذلك موضعَ عجبٍ منا واستغراب ، لأننا نعلم أنه لم يترق شيئاً ، وأنه لم يحضر إلى المصبغة إلا في ذلك اليوم الذي أمرتنا فيه بضربه ، ولكننا لم نملك إلا أن نُطيعك ، فضر بناه ضرباً موجعاً مُبرحاً ؟



حينئذ تبين الملك سوء أخلاق أبي قير وعظم شناعة جرمه ، فقال
لجنوده : جرّدوه من ثيابه ، وطوفوا به في المدينة ، عبرة لمن يعتبر ، ثم
ضعوه في غرارة مملوءة بالجير الحى ، وألقوه بالبحر ، ليوت غرقاً وحرقاً ،
كما حكمنا على صاحبه الطيب من قبل ، فنجاه الله ، فهذا الحقود الخائن
أولى بهذه الميته .

فقال أبو صير للملك : يا ملك الزمان ، شقنى فيه ، فإننى مُساعمه ،
ومتجاوز عن جميع ما فعله معى ؛ وما ذلك إلا لأنّ الشيطان كان يُسيطر
عليه ، ويُغريه بفعل السوء ، وقد يُصلحه المقوّم عنه ، والتجاوز عن
سيئاته .

فقال الملك : إن كنت ساعته في حقك ، فأنا لا يمكن أن أساعمه
في حقّ ، فإنّ هذا أسوأ ممثّل للإنسان الشرير ، وإذا لم يلق جزاءه ، تماذى
في شرّه .

ثم صاح على الجنود قائلاً : خذوه .

فأخذوه ، وطافوا به حول المدينة كما أمر الملك ، ووضعوه في الغرارة
المملوءة بالجير الحى ، وألقوه في البحر . فمات غريقاً حريقاً ، جزاء
حقده وغدوره .

وعرض الملك الوزارة على أبي صير ، ولكنه رفض ، فقال له : تمن
علىّ تعط يا أبا صير .

فقال : تَمَتَّيْتُ عَلَيْكَ أَنْ تُرْسَلَنِي إِلَى بِلَادِي ، فَإِنِّي مَا بَقِيَ لِي رَغْبَةٌ فِي
الْبَقَاءِ هُنَا .

فَأَذِنَ لَهُ الْمَلِكُ بِالسَّفَرِ ، وَلَمْ يَمَارِضْهُ ، وَوَهَبَ لَهُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً ،
وَأَعْطَاهُ عَطَايَا عَظِيمَةً ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِسَفِينَةٍ مَشْحُونَةٍ بِالْخَيْرَاتِ ، وَجَمِيعِ
بَحَارَتِهَا مِنْ مَمَالِكِهِ ، فَوَهَبَهُمْ لَهُ أَيْضًا .

وَوَدَّعَ أَبُو صَيْرٍ الْمَلِكَ ، ثُمَّ أَقْلَعَ بِسَفِينَتِهِ .

وَمَا زَالَتِ السَّفِينَةُ تَخْرُجُ بِهِمُ الْبَحْرَ ، حَتَّى أَقْلَعَتْ مَرَسَاها بِشَاطِئِ
الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَنَزَلَ جَمِيعُ مَنْ فِيهَا إِلَى الشَّاطِئِ ؛ وَإِذَا بِمَمْلُوكٍ يَهْرَعُ إِلَى
أَبِي صَيْرٍ قَائِلًا :

يَا سَيِّدِي ، إِنَّ عَلَى حَافَةِ الشَّاطِئِ غَرَارَةً ثَقِيلَةً مُحْكَمَةَ الرِّبَاطِ ، وَلَا
أَدْرِي مَا فِيهَا .

فَذَهَبَ أَبُو صَيْرٍ إِلَيْهَا ، وَفَتَحَهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا جِثَّةَ أَبِي قَيْرٍ .

فَوَقَفَ يَتَأَمَّلُهَا بَرْهَةً ، وَمَا مَلَكَ دُمُوعُهُ فَإِنَّهَا طَفَرَتْ مِنْ عَيْنَيْهِ .

وَتَذَكَّرَ مَغَادِرَتَهُمَا هَذَا الشَّاطِئِ مَعًا ، وَالْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمَا عَلَى الْعَمَلِ
بِهِ حَتَّى يَمُودَا ؛ وَهَاهُوَ ذَا قَدْ مَادَ ، وَمَادَ أَبُو قَيْرٍ ، وَلَكِنْ شَتَّانَ بَيْنَ
الْحَالَتَيْنِ ، فَهَذَا حَيٌّ ، وَذَلِكَ مَيِّتٌ ؛ وَهَذَا مَرْضِيٌّ عَنْهُ ، عَطَرَ السَّيْرَةَ ،
وَذَلِكَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ ، مَلُومٌ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ .

وَلَمْ يَمُدَّ يُفَكِّرْ أَبُو صَيْرٍ إِلَّا فِي الْعَمَلِ عَلَى دَفْنِ صَاحِبِهِ ، اسْتِجَابَةً لِمَا

طبع عليه من كرم الخلق والصفح الجليل .

فدفنه بالقرب من الإسكندرية ، وأقام له ضريحاً وقَفَ عليه أوقافاً
لينفق من ريعها عليه .

ولما وافتى الأجل أباصير ، دُفن بجانب أبي قير ؛ وعُرف المكانُ
بين الناس باسم أبي قير وأبي صير .
ثم اشتهرَ بعد ذلك بشاطيء أبي قير .



تاج الملوك

كانت المدينة الخضراء ، من وراء جبال أصفهان في العهد الخواري ،
مُسْتَحَرَّةَ النُّمَران ، نَفَّاحَةً بالحياة ، وَجَمَعَ مَلِكُهَا سُلَيْمَانُ سُلْطَانَ الْجَمَاعَةِ
فِي يَدِهِ ، بِمَا كَتَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، مِنْ عَدْلِ وَإِحْسَانٍ وَرَحْمَةٍ ؛ فَسَخَّرَ رَعِيَّتَهُ
لِسُلْطَانِ أَمْرِهِ ، وَنَفَازِ حُكْمِهِ ، وَعَاشَ مَدَّةً مَدِيدَةً مِنَ الزَّمَانِ ، فِي ظِلِّ
مَمْدُودٍ مِنْ سَلَامٍ وَأَمَانٍ ، لَا يُرْتَقَى صَفْوَ عَيْشِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا
زَوْجَةَ ، وَكَانَ وَزِيرُهُ عَلَى سُنَّتِهِ ، فِي سِمَاحَةِ نَفْسِهِ ، وَفَيْضِ إِحْسَانِهِ ،
وَشُمُولِ عَدْلِهِ ؛ فَنَخَلَا بِهِمَا مَجْلِسُ ذَاتِ لَيْلَةٍ ، فَقَالَ : لَقَدْ أَثْقَلْتُ كَاهِلِي ،
وَقَصَمْتُ ظَهْرِي ، أَنِّي مِنْ غَيْرِ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ لِي أَنْ أَصْبِرَ عَلَى
هَذِهِ الْحَالِ ، ذَلِكَ الْعَمَرُ الطَّوِيلُ ، وَمَا كُنْتُ لِأُخْرِجَ بِالْكُوفِ عَلَيْهَا
عَنْ سُنَّةِ الْمُلُوكِ ، وَأَعْصَى مَا أَمَرَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ بِقَوْلِهِ : « تَنَاحُوا

تناسلوا تكثروا فإني مُباهٍ بكم الأمم يوم القيامة ؛ ومن الخير أن أَسْعَى
إلى زوج طيبةٍ دَيَّة ، كريمةٍ العِرق ، ذاتِ نسبٍ زكىٍّ ممدود ، وحسبٍ
شريفٍ غيرِ ممدود ، لئلى أَرْزُقُ منها بولدٍ يرثى من بَندى ، ويكونُ مثلاً
فى التَّقْوَى والرَّجُولَةِ والعِزَّة ، والإِسْبَالِ عَلَى رَعِيَّتِهِ إِسْبَالَ الْأُمُومَةِ ؛ فقال
الوزير : واقدِيسَرَ اللهُ أَمْرَكَ ، وقضى مأْرَبَكَ ؛ فقال : وكيف كان
ذلك ؟ فقال الوزير : بلغنى أَنَّ لِمَلِكٍ زَهْرشاه ، صَاحِبِ الْأَرْضِ الْبَيْضَاء ،
بنتاهى لِلدِّينِ وَلِلدُّنْيَا ، جَمَالٌ وَتَقْوَى ، تَتَوَسَّمُ فى أُسَارِيرِها نَوْرَ الدِّينِ ،
وَتَتَنَسَّمُ من أَعْطَافِها رِيحَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ ؛ وهى حَسَناءُ هَيَفاءُ تَفوقُ طَلْعَها
الشمسَ والقمرَ ، وأرى أَنَّ تُرْسَلَ فى خِطْبَتِها من أَيْبِها ، رَسولاً فَطِنًا
خَبِيرًا ، يَتَلَطَّفُ فى القَوْلِ ، وَيَأْتِى الْأُمُورَ من أَبْوابِها ، فأنصَرَفَ عَن
الْمَلِكِ الْهَمِّ ، انصَرَفَ اللَّيْلُ الْمُرْعَدُ عِنْدَ الصَّبَاحِ الْوَدِيعِ . وقال : إِنْ أَرَادَ
اللهُ لِنُورِ الْأَوْلَادِ أَنْ يُشْرِقَ فى هَذَا الْقَصْرِ الْمَلِكِيِّ الْمُتَوَاضِعِ ، وَيَحْجُو هَذَا
الْعَقْمَ الْمَصْنُوعَ الْوَادِعَ ، فَيُضِضْ لَهُ : بِمَا تَجَلَّى فَيْكَ من مَوَاهِبِ الرَّأْيِ
وَالْفَطَانَةِ ، وَقَدْ وَكَلْتُ إِلَيْكَ مَعَالَجَةَ هَذَا الْأَمْرِ ، فَلتُسَافِرْ إِلَيْهِ من غَدِكَ ،
وَاللهُ يُوَفِّقُك ؛ فقال الوزير : أَمْرٌ مُطَاعٌ ، وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .

ورأى الوزيرُ من الْحِكْمَةِ أَنَّ يَرْبِطَ الْمَلِكَيْنِ بِرِبَاطٍ من الْوُدِّ ، قَبْلَ
أَنْ يَبْلُغَ رِسالَتَهُ ، فَحَمَلَ مَعَهُ من الْهَدَايَا ما يَلِيقُ بِمَلِكٍ عَظِيمٍ ، فَهَذِهِ
جَواهِرُ نَفِيسَةٍ ، وَتِلْكَ جِياذُ صَافِيَّاتٍ ، وَأَوَانِثُ جَوارِ حِسانٍ ، وَهَؤُلَاءِ
عَبِيدٌ وَغِلْمانٌ ؛ وَسارَ يَطْوِى الْقَفَرَ وَالْبَيْدَ ، فَلما كانَ من مَدِينَةِ زَهْرشاهِ

على مسيرة يوم ، تزل على شاطئه نهر صفا ماؤه واقشعرت مويجاته ،
 في كنف شجرة ذات ظلٍ ممدود ، وزهر منضود ، نسمها رُخاء ،
 وعبرها يفوح في الجواء ؛ ثم أوفدَ أحدَ رجاله إلى الملك زهرشاه ،
 يخبره بقدومه ؛ فلما أوفى على مدينته — وكان جالساً في بُستانٍ بظاهرها —
 رآه في حركاتٍ وهيئةٍ يَمَّانٍ عن غُربته ، وأنه ليسَ من أهل تلكَ
 المدينة ، فأرسلَ إليه مَنْ أحضره بين يديه ، وسأله عن مقصده وغايته ،
 فأخبره بأقدامِ الوزير ، وأنه تركه على نهر بيننا وبينه مسيرة يوم ، وفي
 طريقه الآن إلى المدينة ؛ وربما وصلَ إليها غداً ، فاصطحبه الملكُ إلى
 قصره ، وأمرَ بعضَ وزرائه وحُجَّابه ، أن يخرجوا للقاء وزير الملك سليمان
 شاه ، تكريماً له وتعظيماً .

ولما جمعت الشمسُ أشعتها وتوارت بالحجاب ، استأنفَ الوزيرُ
 سيره إلى المدينة ، يَشُقُّ سُدُولَ الظلام ، على هُدًى من النجوم ، في
 طريقٍ رحبٍ ، وحوله من الفراغ نطاقٌ خفيف ، يثير البلبالَ في الخواطر ،
 ولما انبثقَ نورُ الصباحِ لقيه وفدُ المليكِ لقاءَ العاشقِ المتوجِّدِ فتاته ؛
 فاستبشَرَ الوزيرُ بهذه الحفاوةِ البالغة ، وظنَّ أنه بالغَ مأربه ، وسجَّلَ في
 نفسه أوَّلَ بارقةٍ من بوارقِ أملِه ، وخَفُّوا جميعهم إلى المدينة ، فألفاها
 الوزيرُ جياشةً بالحياة ، مَوَّارةً بالحركة ، مُتَوَّبةً ألهم ، متواظفةً على
 الجدِّ والعمل ، حتى كانوا أمامَ قصر الملك زهرشاه ، فإذا حديقة
 تَصَدَّرُه ، ذات رُواءٍ بهيجٍ ، وَمَنْظَرٍ فاتنٍ ، يسحرُ الأبَّ ، ويملكُ

الطرف، فسيرنا في ممشيها بخطى مُتشددة، حتى ولجَ بي وزيرُ الملك باب القصر الحديدي، المكسو بالنحاس المموه بالذهب، إلى دهليزٍ عريضٍ ممدود، وقفَ حرسُ الملكِ بأسلحتهم فيه صَبَّيْن، ذات اليمين وذات الشمال، وانهى بنا إلى إيوانٍ مرتفع، فصعدنا في سُلَّم من الرخام الناصع بياضه، والمحلى جانباه بأصص الأزهار المختلفة، تَفِئَحُ بِأريجها العطر، وأذن لنا بالدخول، فإذا الملكُ جالسٌ في صدرِ الإيوان، على عرشٍ قوائمه من العاج المرصع بالدرّ والجوهر، ذى فرشٍ وثيرٍ من سُفُوسٍ وإستبرقٍ، ورجال دولته جالسون أمامه في استدارة الهلال في صدر السماء، فحييت الملكَ ومن معه تحيةً طيبة، وأجلسني على كرسيٍّ بمحوارِ عرشه، وسماتُ الفرح بادية على وجهه، متألقَةٌ في وجوه حاشيته، وأمرَ بإكرامٍ من حضرَ معي من جوار وعبيد، وأحضرَ مائدةً جمعتُ مالدَّ وطاب، من صنوف الطعام والشراب فأكلنا مَرِيثًا، وشرَبنا هنيئًا، ورأيتُ من عظيم إقباله، وكريم إيناسه، ما طمأنني على ما جئتُ من أجله، ولما خلا الإيوانُ إلا من الملكِ وخاصته، نهضتُ واقفا بين يديه، فقلتُ :

أيها العاهلُ الكبيرُ، لقد ذاعَ فضلكُ، وطبقَ الآفاقَ مجدكُ، وتنفستُ الأنديةُ بِأريجِ سيرتكُ، وبالنغِ حكمتكُ، فرغبَ في الزلفى إليك الملكُ سليمان شاه، وجعلَ المصاهرةَ وشيجةَ الامتزاج والمحبة، ورابطةَ القُرَى والألفة، وأحبَّ أن تكونَ ابنتكُ الكريمة، زوجا له، فيضيف بذلك كلٌّ مِنكما إلى مُلكه مُلكا، وإلى جُنده جُنُدا، وإلى سُلطانِه قوته



سلطاناً وقوة ، وتُصبِحاً مَبْعَثَ هَيْبَةٍ ، ومَشْرِقَ سَطْوَةٍ ، ومَهِيْطِ رِجْلٍ ورَغْبَةٍ ، ومِلَازٍ كُلِّ ذِي حَاجَةٍ ومَعُونَةٍ ، وحِرْصاً مِنَ الْمَلِكِ سَلِيْمَانٍ عَلَى سُرْعَةِ إِنْجَازِ رَغْبَتِهِ ، إِذَا حَازَتْ مِنْكُمْ الْقَبُولَ وَالرِّضَا ، فَقَدْ وَكَّلْنِي عَنْهُ فِي عَقْدِ الزَّوْاجِ وَالْأَمْرِ بِمَعْدُ ذَلِكَ لِلْمَلِكِ الْعَظِيمِ زَهْرِ شَاهٍ ، قَتَايِلَ الْمَلِكِ فَرَحًا وَقَالَ : تِلْكَ أُمِّيَّةٌ جَادَ بِهَا الزَّمَانُ ، وَوَاتَانِي الْقَدَرُ ، وَمِنْ الْخَيْرِ أَنْ نُعَجِّلَ بِهَا ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْقَاضِي وَالشَّهْوِدِ أَنْ يَحْضُرُوا بِالْإِيْوَانِ اللَّيْلَةَ ، وَتَأَلَّقَتِ الْأَصْوَاءُ فِي جَنَابَاتِ الْقَصْرِ وَأَرْجَائِهِ ، وَخَفَقَتْ أَعْلَامُ الْأَفْرَاجِ وَالبَهْجَةِ ، وَصَدَحَتِ الْمَوْسِيقَى ابْتِهَاجًا وَمَسْرَةً ، وَفِي حَضْرَةٍ وَزَرَائِهِ وَخَاصَّتِهِ ، تَمَّ عَقْدُ الزَّوْاجِ بَيْنَ سِمَاتِ النِّبْطَةِ ، وَمَعَالِمِ الزَّيْتَةِ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ الْوَزِيرُ ، أَنْ يَقْبَلَ الْمَلِكُ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ الْهَدَايَا ، فَقَبِلَهَا شَاكِرًا .

وَأَعْلَنَ الْمَلِكُ إِقَامَةَ الْوَلَاثِمِ فِي قَصْرِهِ ، يُؤْمِنُهَا أَبْنَاءَ مَدِينَتِهِ ، ابْتِهَاجًا بِزَوْاجِ الْأُمِيرَةِ ، وَسَرَى هَذَا النَّبَأُ سَرِيانَ الْحَيَاةِ فِي الثَّنَاتِ ، فَازْدَهَرَ كُلُّ بَيْتٍ ، وَازْيَنَ كُلُّ شَارِعٍ ، بِالْأَعْلَامِ الْمَرْفُوعَةِ ، وَالرَّايَاتِ الْخُفَافَةِ ، وَالْعَابِ الْخَلِيلِ وَمِظَاهِرِ الْإِلَهِ ، وَأَلْوَانِ الْمَرْحِ ، فِي كُلِّ بُقْعَةٍ ، فَامْتَلَأَ الْجَوُّ بِأَغَارِيدِ الْغِنَاءِ ، وَنَهْمَاتِ الْمَزَامِيرِ ، وَأَصْوَاتِ الدُّفُوفِ وَالطُّبُولِ ، وَخَلَقَتْ أَنْوَارُ الْمَصَابِيحِ شَمْسَ النَّهَارِ ، فَجِيَتْ آيَةُ الظَّلَامِ ، شَهْرَيْنِ كَامِلَيْنِ ، أَعَدَّ الْمَلِكُ فِيهِمَا أَنْثَا ابْنَتِهِ وَفَرَّاشَهَا ، وَأَعَدَّ هَوْدَجًا مِنْ خَالِصِ الْحَرِيرِ ، الْمُنَقُوشِ بِالذَّهَبِ ، وَالْمَحْلَى بِالْجَوَاهِرِ وَالذَّرَرِ ، لَتَسَافِرَ فِيهِ إِلَى بَلَدِهَا .

وَفِي غُرَّةِ الشَّهْرِ الثَّالِثِ ، وَدَّعَ ابْنَتَهُ فِي حَفْلِ جَامِعٍ ، عَلَى مُبْعَدِ ثَلَاثَةِ

فراستخ من عاصمة مُلْكِهِ ، ثم رجعَ هو ومن مَعَهُ .

وسارَ الوزيرُ بِهَا ، وَمَعَهُ أُنَاسُهَا وَفِرَاشُهَا ، وَعِيِيدُهَا وَإِمَاؤُهَا ، حتَّى
كَانَ عَلَى مَسَافَةِ يَوْمٍ مِنْ مَدِينَةِ مَلِكِهِ سُلَيْمَانَ شَاه ، فَأَوْفَدَ رَسُولًا إِلَيْهِ ،
يُخْبِرُهُ بِقُدُومِ الْعُرُوسِ عَلَى خَيْرِ مَا يَوْدُ وَيَبْغَى .

وكانَ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ شَاه فِي تِلْكَ الْمَدَةِ ، يَتَقَلَّبُ عَلَى أَحَرٍّ مِنَ الْجَمْرِ ،
مُرْتَقِبًا وَزِيرَهُ ، رَاجِيًا أَنْ يَمُودَ فَائِزًا مَنْصُورًا ، وَمَا كَادَ الرَّسُولُ يُخْبِرُهُ
بِقُدُومِ الْعُرُوسِ ، حتَّى بُعِثَ خَلْقًا آخَرُ ، يَفِيضُ حَيَاةَ وَقْوَةٍ ، وَيَشْعُ
نُورًا وَوِضَاءً ، وَأَصْدَرَ أَمْرَهُ ، أَنْ يُخْرِجَ الْجُنُودَ رُكْبَانًا وَرِجَالًا ، لِاسْتِقْبَالِ
الْعُرُوسِ فِي حِفْلِ عَسْكَرِيٍّ رَائِعٍ ، وَطَارَ الْخَبْرُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَهَبَّتْ نِسَاءُ
وَرِجَالُ شَمِيوْخَا وَفَتِيانَا ، إِلَى لِقَاءِ الْمَلِكَةِ ، فِي سَكْرَةٍ مِنْ فَرَحٍ
وَمُسْرَةٍ .

وَجَاءَتِ الْعُرُوسُ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ ، وَالْفَرَحُ مِنْ حَوَائِهَا بَادٍ فِي الْأَفْوَاحِ
زَغْرَدَةٌ وَغَنَاءٌ ، وَفِي الْأَيْدِي تَصْفِيقًا ، وَفِي الطُّبُولِ تَقْرَأُ وَدَقًّا ، وَفِي آلَاتِ
الطَّرَبِ صَفِيرًا وَعَرَفًا ، وَفِي الْأَعْلَامِ خَفَقَانًا وَحَرَكَةً ، وَقَوًى مِنْ كُلِّ
أَوَّلِكَ جَمَائِهَا وَمَا تَرَفَّلَ فِيهِ مِنْ حُلٍّ وَزِينَةٍ .

وَدَخَلَتْ مَقْصُورَتَهَا الَّتِي أُعِدَّتْ لَهَا ، فَجَلَسَتْ عَلَى سَرِيرِهَا الذَّهَبِيِّ ،
الْمَفْرُوشِ بِالْحَرِيرِ وَالْإِسْتَبْرَقِ ، وَقَضَى الْمَلِكُ مَعَهَا اللَّيْلَةَ فِي أَهْنِهَا حَالٍ ،
وَأَهْدَأُ بَالٍ ، وَشَاءَ الْقَدْرُ أَنْ تَحْمَلَ مِنْهُ اللَّيْلَةَ ، فزَادَ الْمَلِكُ لَهَا حُبًّا وَإِعْزَازًا ،
وَوَدًّا وَتَسْكِينًا .

وجاءها المخاض في آخر التاسع من شهر حملها ، فوضعت غلاما
 زكيا ، فكان مشرق سعادة ، ومبعث حياة خالدة ، في نفس أبيه ، وسماه
 تاج الملوك ، وعني بكفالتة جد العناية ، فلما أوفى على سبع من عمره ، وكل
 إلى العلماء والحكام أمر تعليمه وتنقيفه ، ولما حذا الخط والكتابة ،
 والأدب والحكمة ، وكله إلى أستاذ يعلمه الفروسيّة ، فكان يخرج به إلى
 الفلاة ، تحرّسه مئة من الجنود الأشداء ، فيروضه على أعمال الصيد
 والقنص ، وركوب الخيل ، والطعن والضرب ، حتّى اشتدّ ساعده ، وبرع
 في البطولة ، وشغف بها شغفا عظيما ، وكان قد بلغ من العمر ثمان عشرة سنة
 وجعل يؤم المصايد والمقاصص كلّ يوم ، غير مُشفق على أبيه ، الذي يأبى
 عليه هذا الخروج ، مخافة أن يُصيبه مكره .

وذات يوم أمر تاج الملوك خدمه ورجاله ، الذين يصحبونه في مَنَداه
 ومَراحه ، أن يزودوا بما يكفيهم عشرة أيام ، فلما حَزَ موامعتهم ساروا مُوغلين
 في البیداء أربعة أيام ، ثم نزلوا على مَرَجٍ بَسَقَ دَوْحُه ، واشتبك شجره
 وتفجرت عيونُه ، وطابَ نَسيْمُه ، واتخذوا من قبابهم المضروبة سكنا ،
 ينسأخون منها للصيد والقنص ثم يمودون ، وفي بُكرة ليلة من ليالى
 نزولهم ، رأوا جماعة قد حطوا بأمتعتهم ، في ناحية من نواحي مَرَجهم ، فبعث
 تاج الملوك إليهم من يتعرفهم ، ويتبين مقصدهم ومأربهم ، فقالوا إنا تجار
 وجئنا ببضاعتنا هذه ، إلى مدينة الملك شاه ، ومنها كثير لانه تاج
 الملوك ، ولما أجهدنا السَّفرُ نزلنا المستريح غير خائفين ، لأننا في حمى

الملك سليمان شاه ، الذى منَّ أَوْى إليه سَلِم ، ومن لاذَّ به آمِن .

فلما جاءه الرسولُ بما عرف ، أمرَ بإحضار التجار بضاعتهم لديه ، فذهب الرسولُ إليهم وكانَ لبقاً فقال : سيِّدى الأمير تاج الملوك سليمان شاه يدعوكم لحضرته ، ليزدادَ أَمْنُكم ، ويأتِنِسَ بكم ، وتعرضوا عليه بِضَاعَتكم ، ففرحوا وقالوا : ذلكَ حظُّنا السعيدُ أسرعَ فواتاناً ، وخَفَّتْ لامتِّقبالنا ، وكانوا بعدَ فترةٍ من الزمن بينَ يديه ، فعرضوا بضاعتهم ، وأخذَ لنفسه منها ما راقه ، وتقدَّم عنه ، غيرَ أَنه لحظَ شاباً من بينهم ، قرأَ في وجهه قلقاً محوَّراً في نفسه ، وحسرةً تتلظى في صدره ، وأنَّه لم يعرضْ مثلَ زملائه بضاعته ، فقال له تاجُ الملوك : لعلَّ شيئاً فى نَفْسِك ، حبَّسَكَ عنَ عرضِ بضاعتك ؟ فقال : ليس إلا ما أعلمه ، من أَنَّها غيرُ صالحة ، فقال الأمير : سأَ نظر إليها بعينى لا بعينك ، وقد أَرى فيها غيرَ ما ترى ، فعرضَها الشابُ قطعةَ قطعة ، وكان منها ثوبٌ من الحرير ، فسقطت منه خرقةٌ وهو يمرضُه ، فأسرعَ الشابُ وخبأها تحتَ فخذِه ، فسأله الأمير : ما هذا الذى خبأته تحتَ فخذِك ؟ فقال : ذلكَ ما ليسَ لك به حاجة ، فقال الأمير : ربَّما كانَ ذلكَ هو الذى أنحلَّ جِسمك ، وأحالَ لونك ، وبَلَّبلَ فِكرك ، ولغىَ عِزِّمَ مشبوب ، لأنَّ نَفْسَ عَنكَ ما تقاسيه من خطوب ، ومن الخَيْرِ ألا تخفىَ أمرها وأمرَكَ عَنى ، فالمرءُ ضيفٌ بنفسه ، قوئى بأخيه .

وبسطَ الشابُ الخرقة ، فإذا بها صورة غزالٍ من حرير مزخرفٍ

بالذهب في ناحية ، وصورة غزال في ناحية أخرى ، من سندس مزخرف بالفضة ، وفي رقبته طوق من ذهب ، وثلاث حبات من زبرجد ، فلكت الصورتان على تاج الملوك مشاعره ، وأقبل على الشاب قائلا : أفصصن فصصك ، ولا تغادر منه صغيرة ولا كبيرة ، فقال الشاب :

كان أبي من كبار التجار ، وكان له أخ مات عن بنت قطعت من عمرها ثلاثة أهلة ، وكانت بذعا في الجمال وحسن الخلقة ، فكفلها أبي ، وكان لم يرزق بولد غيري . واتفق هو وعمي قبل موته ، أن يزوجني من بنته هذه ، فرييت معها في بيت أبي تريئة عالية ، ولما بلغنا الرشد ، أخذ أبي في إعداد ما يلزم لوليمة إبرام عقد زواجي منها ، ودعا أصحابه من التجار والأعيان ، إلى حضور الوليمة ، عقب صلاة الجمعة ، وكنت قد أخذت في هذا اليوم إلى الحمام حلة فاخرة ، لأحضر بها وليمة الزواج ، فلما خرجت من الحمام ، تذكرت صديقا لي ، فرغبت أن أدعوه ، وجعلت أبحث عنه ، ولما شعرت بالتعب ، جلست أستريح على مضطبة ، في زقاق لم أسلكه من قبل ، وكان جنسي قد تفجر عرفا ، فجعلت أجففه بتنديل حتى ابتل وتشبع بالماء . وبينما أنا جالس على هذه الحال ، إذ سقط على مندبل من الحرير ، تشع منه رائحة ذكية ، فأرسلت بصرى إلى مهبط المندبل ، فإذا فتاة مطلة من نافذة ، كأنها البدر المطل من خلال السحب المنقطعة ، فلما رأيتني شاخص البصر إليها ، وضعت إصبعها في فيها ثم أخرجته ، وقرنت الوسطى بالسبابة ، ووضعتهما بين يديها ، ثم

أقفلت النافذة ، وغابت في الحجرة ، فاستعرت في قلبي ناز من الوجد والهيام ، ولبثت أرتقب عودة الفتاة تطل ثانية من النافذة ، حتى توارت الشمس بالحجاب ، ولما استياست قفلت راجعا إلى بيت أبي ، وبينما أنا سائر فتحت المنديل الذي هوى على من النافذة ، فوجدت فيه ورقة قد كتب فيها : « القتل في سهام العين إذا رنت ، والسكر بالرضاب لا بالقدح » ، فزاد الوجد في قلبي استعارا ، وذهبت إلى البيت اضطرب اضطرابا ، فألقيت ابنة عمي ، جالسة تبكي ، فكفكت من حزنها ، وسألتها عن ولية الزواج وما تم فيها ، فقالت : جاءها رجالات المدينة وأعيانها ، فطمعوا وشربوا ، وانتظروا قدومك طويلا ، فلما استياستوا منه خلصوا نجيا ، وهم في حيرة من غيابك ، وقد غضب والدك ، وأقسم أن يرجي زواجي منك إلى العام المقبل ، فهل أستطيع أن أعرف منك سبب تأخرك إلى هذا الوقت من الليل ، فلما أخبرها ، وقرأت ما في الورقة ، سأله عما قالت أو أشارت ، فقال : لم تقل شيئا ، ولسكنها وضعت إصبعها في فها ثم أخرجته ، وضمت الوسطى إلى السبابة ، ووضعتهما بين يديها ، ثم اختفت وأقفلت النافذة ، فهل أجد عندك معونة على ما لبثت به من الهوى ؟ فقالت : لك عيني وروحي وكل ما أملك ، فقال : وهل تعرفين ما ترى إليه من إشاراتها ؟ فقالت : إنها تقول بوضع إصبعها في فها : إني أعض على حبك بالزواج ، وتقول بوضع إصبعها بين يديها : تعال هنا بعد يومين ، لأطفي برؤيتك لهيب الجوى ،



ما المنديلُ فسلامُ المُحبين ، وأما الورقةُ فاكْتَبَ فيها واضحٌ مبين ،
واو كُنتُ أُخرجُ من البيتِ لجمْتُ بينكما في أسرع وقت ، وأسبَلْتُ
عليكما سِترَ السكّتان ، ولبثتُ يومينِ في حَضَانَةِ ابْنَةِ عَمِّي ، تبعْتُ في
الأملِ الباسم ، وتبشّرني بوصولِ جميل . ولما انقضى اليومانِ ألبسني
أحسنَ ما لدى من الثياب ، وسرّحتني إلى فتاتٍ مُشيعاً بدعائها وقلبيها ،
فكنتُ بعد قليلٍ في المكانِ المهود ، في الوقتِ الموعود ، وما كُدت
أستقرّ على المصطبة ، حتّى أشرقتِ النافذةُ بوجهِ الفتاة ، فبسّطت كَفَّها ،
وحلّت بأصابعها الخمسِ صدرها ، ثمّ أوحتْ برآةٍ في يدها ، والتقمّتها
الحجرة ، بعد أن أغلقتِ النافذة ، فأصابني همٌّ من بعدِهم ، وقت على عجلٍ
إلى ابْنَةِ عَمِّي ، فاستقبلتني باسمّةٍ ضاحكةٍ قائلة : لعلك التقيتِ بفتاتك ؟
قلت : لا أزالُ في بأسٍ من اللقاء ، وحكيّتُ ما فعلته ، فقالت : لا تنفكُ
طالقةً بك ، ولا يزالُ هواها معك ؛ أمّا ضربها بالكفّ صدرها فإنه
إشارةٌ إلى أنْ تجيئها بعدَ خمسةِ أيام ، وأمّا تلويحُها بالمرآةِ فعناهُ أنْ تجلسَ
أمام دكانِ الصباغِ حتّى يأتِيكَ رَسُولُها ، فأيقنتُ صدق ابْنَةِ عَمِّي في
تأويلها ، إذ كانَ في الزقاقِ دكانُ لصباغِ يهودي ، وعكفتُ خمسةَ أيام مع
ابْنَةِ عَمِّي وأنا في عذابِ أليم ، من خوفِ الفشلِ والإخفاق ، وابْنَةُ عَمِّي
في حزنٍ عظيمٍ من أجلي ، ولما حان الموعد ، وكان يومَ السبت الذي تفاقُ
فيه دكاكينُ اليهود ، ذهبتُ إلى دكانِ الصباغ ، فجلستُ أمامه حتّى
غربت الشمس ، ولم ألمحْ نافذةً فتحت ، ولا رسولاً أتى ، فانقلبتُ إلى

البيت يائسا حزيناً ، غضبان ثائراً ، فاستقبلتني ابنة عمي بابتسامة مُشرقة ،
وقالت : لِمَ لَمْ تَبِتْ مع فتاتك الليلة ؟ فدفعتها بيدي في صدرها بقوة ،
فسقطت وخذش الجدار جبينها ، فمصبت رأسها ، وأقبلت عليّ تهذهد
من يأسى ، وتبشّرني بنيل بُغيي ، فأخبرتها بما وجدت من إخلاف وفشل ،
فقلت : لا تخف ولا تحزن ، إنها تختبرُ حبك ، وتبلي صبرك وبلاءك ،
فاذهب إليها في الصباح ، وانظر ما تشيرُ به عليك ، فكنت وشروق
الشمس على المصطبة ، شاخصاً يبصرى إلى النافذة ، ولبثتُ بضع دقائق ،
أطلت الفتاة على أثرها من النافذة ضاحكة ، ثم غابت وعادت ومعها مرآة
وكيس ، وأصيصٌ به زرعٌ أخضر ، وقنديلٌ مضيء ، فوضعت المرآة في
الكيس وأحكمت رباط قف ، وألقته في الحجرة من خلفها ، ثم أرخت
شعرها على وجهها ، ووضعت القنديل على الأصيص لحظة ، ثم أقفلت
النافذة ، وولت مديرة ، فلويت وجهي إلى ابنة عمي ، التي كانت تتحرّق
ألماً وغيره ، ولكنها كانت تخفي أمرها إشفاقاً على ورحمة ، وأخبرتها
بما كان من الفتاة هذه المرة ، فقلت : أبشّر بنيل المراد ؛ فقد أشارت
بالمرآة والكيس أن تحضُر إليها بعد غروب الشمس ، وعزّزت ذلك
بإرخاء شعرها على وجهها ، وبأصيص الزرع إلى أنك إذا جئت فادخل
البستان الذي وراء الزقاق ، وبالقنديل إلى أنك تؤمّه ، وتجلس تحته حيث
يضيء ، مرتقباً حضورها إليك .

ولما جاء الموعد أعطيتني ابنة عمي حبة مسك قائلة : اجعل هذه الحبة

في فك ، وقت اجتماعك بفتاتك ، ثم قل هذه العبارة عند خروجك :
 « كيف يصبر من برّح به الهوى ؟ » .

وفي الموعد المضروب بإشارتها كنتُ أمام البستان ، فألقيتُ بابه مفتوحاً ، وما ولجته حتى لاح لي ضوء قنديلٍ على بعد ، فركبتُ سمتي إليه ، فوجدت القنديلَ معلّقاً في سماء قبة فسيحة مضروبة ، فيها مقعدٌ فاخر ، مفروشةً ببساطٍ حريريٍّ مزخرف ، وفي وسط القبة مائدةٌ عليها غطاء حريري رقيق ، وبجانها وعاء خمر ، جلس فوقه كأسٌ من ذهب ، ولكن المكان في سكون عميق ، لا أسمعُ فيه ركزاً ، ولا أحسُّ أحداً ، فأخذتُ مكانى على هذا المقعد منتظراً فتاتى ، وجعلتُ ساعات الليل تتقاذفني ، ولكني لم أجِدْ أحداً ، وكان الجوع قد اشتدت وطأته بأمعاني ، فكشفتُ عن المائدة غطاءها ، وطعمتُ وشربتُ ، ثم جلستُ أنتظِرُ ، فغلبنى النوم ، ولم يخلصني منه إلا حرُّ الشمس ولهيئها ، ووجدتني على الأرض من غير فراش ، وألقيتُ على بطني ملحاً وغماً ، فنهضتُ قائماً ، ورجعتُ إلى ابنة عمي خائبا ، وسمعتها تقول : حرامٌ على طيب العيش من غير ابن عمي ، وياليت قلبه مثل قلبي .

ولما رأته أقبلتُ على مُسرعة ، وقالت : ما هذه حالُ من حظي بحبيبه ، فاذا جرى ؟ فأبأتها ما حصل ، فابتسمت في غيظ الخنق الخائف ، وقالت : قوَضَ اللهُ حصنَ من قوَصَتُ حصنك ، ووقاك شرّ كيد هذه الفتاة ، فإني الآن في خوفٍ عليك منها ، فقد بدت لي أنها على علمٍ بالعشق

وأسراره ، وقد تكون عميقة المحال ، فينالكَ منها عَظِيمُ التَّكَالِ ، وما دمتَ لا تؤذُ الاثِفلاتَ مِنْ يَدِهَا ، فَاللهُ يَحْفَظُكَ وَيَعصُمُكَ مِنْهَا ، وسأبدى لك سرَّ ما فعلته بك ، أما المَلِيحُ فإِيماءٌ مِنْهَا إلى أَنَّكَ فِي حُبِّكَ كالطعامِ الذى نقصَ ملحُه ، إذ غلبَكَ النومُ وهو على الماشقين حَرَامٌ ، وأما الفَحْمُ فَإِنَّهَا تَقُولُ بِهِ : سَوَّدَ اللهُ وَجْهَكَ ، إذ كُنْتَ كاذِباً فى محبتِكَ وَجَمَلْتَهُ وَسِمِيلَةً إلى أَنْ تَمَلَأَ بَطْنُكَ ، وتُسَلِّمَ إلى النعاسِ قَلْبَكَ ، فَنَزَلَ قَوْلُهَا مِنْ نَفْسِى مَنْزِلَ القَبُولِ ، وَقُلْتُ فى ذِلَّةٍ ؛ وماذا أَفْعَلُ الْآنَ يَا ابْنَةُ عَمِّ ؟ — وَكَانَتْ تَحْبِبُنِى حُبَّةَ صَادِقَةٍ — فَقَالَتْ : إِنْ أَحَبَّ شَيْءٌ إِلَى أَنْ أَرْضِيكَ ، وَإِنْ بَذَلْتُ فى ذَلِكَ مُهْجَتِى ، فَاسْتَمِعْ لِمَا أَقُولُ : إِذَا جَاءَتْ اللَّيْلَةُ الْآتِيَةُ ، فَادْهَبْ إلى مَكَانِكَ المَعْهُودِ مِنْ بَسْتَانِهَا ، واحذَرُ أَنْ تَأْكُلَ شَيْئاً مِنْ مَائِدَتِهَا ، حَتَّى لَا يَقْهَرَكَ نَوْمٌ أَوْ نُعَاسٌ ، فَقَدْ رَأَيْتَ أَنَّهُ يَعْوُفُكَ ، عَنْ بُلُوغِ مَأْرَبِكَ ، وَلَا تَنْسَ أَنْ تَبْلُغَهَا عَنِ العبارةِ السَّابِقَةِ « كَيْفَ يَصْبِرُ مِنْ بَرَحٍ بِهِ الهوى ؟ » . فَقُلْتُ : لَنْ أَنْسَى هَذِهِ المَرَّةَ .

وَجَلَسْتُ فى مَقْعَدِى تَحْتَ القَبَةِ المَضْرُوبَةِ ، غَيْرَ أَنِّى أَكَلْتُ مِنْ المَائِدَةِ المَوْضُوعَةِ ، وَأَغْرَتْنِى لَذَةُ الطَّعَامِ ، كَمَا دَفَعْتَنِى حَرَقَةُ الجُوعِ ، إلى العُكُوفِ عَلَى المَائِدَةِ حَتَّى شَبِعْتُ ، فَوَجَدَ النَوْمُ سَبِيلَهُ إلى أَجْفَانِى ، وَلَمْ أَجِدْ حِيلَةً أَدْفِئُهُ بِهَا عَنِ ، حَتَّى أُيْقِظْتَنِى شَمْسُ الضُّحَا ، فَأَلْفَيْتُ عَلَى بَطْنِى قِطْعَةً مِنْ سَعْفِ النُّخْلِ ، وَنَوَاطِىرَ قَمَرَةٍ ، وَبَذَرَةَ خُرُوبٍ ، كَمَا وَجَدْتُ القَبَةَ خَالِيَةً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِيهَا ، فَأَسْرَعْتُ إلى ابْنَةِ عَمِّ ، وَبَلَّغْتُهَا مَا كَانَ

في تلك الليلة، وارتقت تفسير رموزها، فقالت : ألم أحذرك ألا كل حتى لا تنام ١.٩ أما القطعة من سَعَفِ النخل فإنها إشارة إلى حضور جسمك ، وغياب قلبك ، وأما النواة فتلويح بأن قلبك خالٍ من الهوى ، وأما بذرة الخروب فتلميح إلى أن الحب ينبغي أن يكون مسلوب الفؤاد ، وقد أضعت مظاهر الحب الصادق ، بأكلك ونومك ، فإن أردت الاجتماع بها فاحذر أن يأخذ الكرى بعمق أجفانك وإلا ألقيت بنفسك إلى شرٍ وييل قد لا أستطيع دفعه ، ويميل إلى أنها قد فرغت من رموزها ، ولم يبق لديها إلا أن تكيد لك كيداً ، بعد هذا الإمهال الطويل ، فقلت : ولن تكتحل بالنوم عيني ، حتى يلبج الجمل في سم الخياط ، وسأبلغها رسالتك .

وفي الليلة التالية ودعتها وانصرفت إلى مكاني من البستان ، هانداً عزبي على السهر حتى مطلع الفجر ، ولبت أن تطير حتى الهزيع الأخير من الليل ، فإذا الفتاة قادمة تخطر وسط عشر جوار كأنها البدر ، عليها حلة من الحرير الرقيق المطرز بالذهب ، فلما جلست يجوارى ضحكت وقالت : الآن أصبحت ذا وجدٍ وهوى ، لأن النوم لا يعرف سبيلاً إلى قلوب المحبين ، ثم أشارت بطرفها إلى الجوارى ففقلن راجعات ، ثم أقبلت على قائلة : لقد رأيتك فأحببتك ، وأود أن تأتي كل ليلة ، تنقطنها معاً في أنس ولذة ، فقلت أخشى أن يغويننا الشيطان فأعصى الله وأجمع بين القرط والخلخال ، فقالت : وذلك ما أردته ، وإلا سكنت

قبرك في هذا البستان تلك الليلة ، إن الحب يُعِيبُ ويُصم ، وما دمت تحبني
 فلن يحولَ بينك وبين الاستمتاع بحبيبك أيُّ حائلٍ من دُنيا ودين ، وكان
 جالها ملء العين والدم ، وفتحة القلب ، فما أجدى معي برهان يوسف
 عليه السلام ، ولبتُ معها بقية ليلة ، طلقة الحرية ، ثم ودعتها في الصباح ،
 وأنساني غرامي بها ، أن أبلغها رسالة ابنة عمي ، وقبل أن أغادر بستانها ،
 أعطتني هذه الخرقه قائلة : لأنها من صنع أختي نور الهدى ، أمنحك
 إياها لتذكرني بها ، وركبتُ السبيلَ إلى ابنة عمي ، التي تقايس آلام حبي ،
 وتحرس على رضائي ، واتباع رغبتني ، وأخبرتُها ما جرى ، فقالت :
 لا أزال أحب رضاك ، وأدعو الله أن يحفظك ويُنجيك ، وطلبتُ إلى
 أن أمب لها هذه الخرقه ، فنحنها إليها ، ولما حان الموعدُ قالت : اذهب
 إلى فتاتك محوطاً برعاية الله وحفظه ، ولا تنس أن تتلو عليها رسالتي
 الأولى ، فوعدها أن أنفذ رغبته .

ولما دخلتُ البستان وجدتُ الفتاة في انتظارى ، فقضينا هذه
 الليلة ، على ما قضينا أختها السابقة ، وفي الصباح أُلقيتُ في مسمة رسالة
 ابنة عمي ، « كيف يصبر من برّح به الهوى ١٩ » فلما سمعتها سحتُ
 عيناها وقالت : « يدارى الهوى ثم يكتم السر ويصبر » .

ورجعتُ في زيارتي من عواطف الثائرة ، وزعاجي الفاسدة ، لم أستمع فيه
 صوتا للضميري ، ودخلتُ بيتي فوجدته في سكون المقبرة ، ووجدتُ
 ابنة عمي قد حبسها المرضُ في فراشها ، وأتى جالسةً عند رأسها ، تبكي

من لؤم الزمان ، وظلم الإنسان ، فلما دخلتُ عليها قالت أمي : تبًا لك ! كيف تبرّمتُ بابنة عمك ، وتناقفتُ من ملازمتها ، مبتغيا نشوة نفسك في مزالق الهوى ، ومفاتيح الشهوة ؟ ولكن ابنة عمي التفتتُ إلى قائلة : هل بلغتُ رسالتى ؟ فقلت : نعم ، وأجابنى بأكية قائلة : يدارى الهوى ثم يكتُم السر ويصبر ، فبكت ابنة عمي وقالت : إذا ذهبت إليها فقل : كتم السر وحاول الصبر الجميل فلم يستطع .

فلما قضيتُ ليلة أخرى في لهُو هذه الفتاة ، وأبلغتها في الصباح رسالة ابنة عمي ، تقاطر الدمعُ من عينيها ، وقالت : إن لم يستطع صبرا فالوت سبيله ، ثم نشطتُ ساعيا إلى ابنة عمي ، والمرضى لا يزال يرمض جوانحها وأمى لا تنفكُ جالسةً يجوارها ، فقرأتُ عليها ما قالت فتأتى ، فحركت ابنة عمي لسانها وقالت : سمعنا وأطعنا ، وسلامٌ على الصابرين يوم يُبعثُ حيًا .

وذهبتُ في موعدي ، فوجدتُ الفتاة في انتظارى ، فلما كان الصباح قرأتُ عليها ما قالت ابنة عمي ، فصككتُ صدرها بيديها وقالت في ألمٍ مُحمض ، وأسفرٍ لاذع : لقد ماتت ! ! أتُعرفُ من حملتك هذه الرسالة ؟ فقلتُ : إنها ابنة عمى ، فقالت : كذبت وافتريت ، لو كانت كما قالت لحلت لها من الحب ما حملته لك ، واقدتُ قاتلها بصدك وإعراضك ، ولو علمتُ حالها من قبل ، ما هدتُ لك سبيل الاتصالِ بى ، فقلت : إنها ابنة عمى ، فنيبتُ فى شخصى ، وحرصتُ على راحتي ورضائى ، وهى التى

كانت تفسرُ ألغازك لى ، وما وصلتُ إليك إلا بمشورتها وتديرها ،
فقالَت : قتلَك اللهُ كما قتلَها ، ثم غادرتها وأنا شارِدُ اللَّبِّ ، مُضطربُ الخطأ ،
بَرِّمٌ بالحياة ، فأفيتُ البيتَ غارقاً فى لجةٍ من حزنٍ أليمٍ ، وعلمتُ أنها
أسلمتُ روحها إلى بارئها ، وشيَّعها أبى إلى قبرها ، ولبثنا فى المقبرة عندها
ثلاثة أيام ، فى حَسرةٍ شاملةٍ : وحزنٍ مُقيمٍ .

ولما رجعنا إلى البيتِ سألتنى أُمى عما كنتُ أفعله بها ، حتى قَضِيتُ
عليها ، فقد حاولتُ أن تعرف من ابنة عمى شيئاً من حياتي معها فافضتُ
إليها بقليلٍ ولا كثيرٍ ، ولكنها قالت : عفا الله عن ابنِكَ ، ولا جازاه
بفعله ، وأخبريه أن يقول للفتاة التى يتردَّدُ عليها : الوفاءُ كرمٌ ، والندِرُ لؤمٌ ،
قالت أُمى : ثم ناولتني شيئاً لك وقالت : لا تعطيه إياه حتى يبكيَ على
حياتى مرَّةً البكاء .

ولقد كنتُ لا أزالُ فى غَمرةِ الهوى ، ونشوةِ الفرجِ بفتاتى ،
وما أقبلت الليلة الرابعةُ حتى كنتُ عندها ، فألفيتها تتقلبُ على جمرٍ من
الصبرِ والانتظارِ ، مرتقبةٌ عودتى ، فإراتنى حتى نهضت سائلة : كيفَ
حالُ ابنةِ عمك ؟ فقلتُ : لحقتُ برَبِّها وشُغلنا هذه المدةَ بنشيعيها ، وتقبُّلِ
العزاءِ فيها ، وقد جئتُ إليك بعد أن نفَضنا أيدينا من ترابها ، فقالت :
رحمها اللهُ ، فقد كنتُ سبباً فى موتها ، وأخشى أن ينتقمَ اللهُ منك لها ،
فقلتُ : لقد صفحتُ عني ، ووهبتُ لى دَمَها وأوصتني أن أقولَ لك ، إذا
ما جئتُ إليك : الوفاءُ كرمٌ ، والندِرُ لؤمٌ ، فقالت : رحمها اللهُ ، فقد

خلصتك من شرى حية وميتة ، فمجيئ أن سمعت منها ذلك ، وقلت :
 وهل كنت أتوقع منك شرا بعد هذه المودة ؟ فقالت : النساء ناقصات
 عقل ودين ، إلا من عصم الله ، وكيدهن إلى ذلك عظيم ، وإنى أحذرك
 ألا تتصل بامرأة غيرى ، فقد تقع فى حبال ما كره ، ويحل بك على
 يديها النكال والوبال ، ثم أخذت على الموائيق والمهود ألا أنقطع عنها ،
 ولبثت معها على أهنا بال ، وأسعد حال ، اثني عشر هلالا .

و ذات يوم خرجت من حمام المدينة ، أرفل فى حلى القشبية ،
 وبينما أنا سائر إلى منزلى ، إذ اعترضت سبيل عجوز تمشى على ثلاث من
 ساقين مرتشتين ، وعصا غليظة ، قد انحنت عليها انحاء القوس ، فنادت
 فى صوت متهدج ، فأسرعت إليها سائلا : نعم يا سيدتى ، ألك حاجة ؟
 فناولتنى كتابا قائلة : أقرأ لى هذا الكتاب ، عافاك الله ونجاك ، فقرأته
 عليها ، فإذا هو ينبئ عن وجود ابن لها فى مدينة سحيقة ، وهو فى صحة
 وعافية ، ويمدها بالحضور إليها قريبا ، ثم ناولتها الكتاب ، وانتهجت
 ناحية ، لأقضى لى حاجة ، ولما انتهت منها ، رأيت العجوز مقبلة على مرة
 ثانية ، ترجونى أن أذهب معها إلى باب منزل - وأشارت إليه - لأقرأ
 الكتاب ، بحيث تسمعه بثبها ، حتى تستوثق من وجود أخيها ، الذى
 فاب عنها عشر سنين ، منقطعة أخباره ، حتى يئست من لقائه ، فذهبت
 معها ، ووقفت أمام الباب ، وأخذت أقرأ الكتاب ، وبينما أنا أقرأه ،
 إذ دفعتى العجوز بقوة ، فدخلت المنزل ، ودخلت هى من خلفى على

عجل ، وأحكمت إغلاقَ بابِهِ ، فرأيتُني أمامَ فتاةٍ ناهدٍ ، تتألقُ وضاعةً
وجالاً ، فضجحتُ في وحيي ، وأمسكتُ يديها يدي ، فأحسستها أنعمَ
من الحرير ، وألّبتُ من النسيم ، فمراني خدرٌ وحيرةٌ ، فابتدرتني قائلة :
الحمد لله الذي جاءني بك ، فقد كنتُ أخشى أن يصيبك شرٌّ من بنت
الدلالة المحتالة ، التي لبّنت في صحتها سنةً أو تزيد ، وقد أتعبتني في الحصول
عليك ، والاحتيال في اختطافك من يديها ، إشفافاً عليك مني ومكرمة ،
فإنها لم تترك شاباً إلا صاحبتَه ، حتى تُشبعَ نهمَ شهوتها ، ثم تهيرُ غصنَ
حياتها ، وتبحثُ عن آخرٍ تنفذُ فيه نهجها ، وشريعة هواها ، وقد حانَ
الوقتُ الذي تنتهي فيه حياتك معها ، فاحمد الله الآن على نجاتك منها ،
واحمد لابنة عمك فضلاً ومعرفةً ، وقد حفرتَ بيدك قبرها ، وكانت
لك أمانٌ وقايةٌ في تحاياها ومماتها ، ولولاها لكنتَ تراباً ، رلقد أردتُك
لنفسِي ؛ على سنة الله ورسوله ، لتحْيى نفساً بنفسٍ ، وتردَّ نعمةً بنعمة ،
فقد شغفتُ بك حباً ، ولن أكلِّفك شيئاً من شؤونِ المعيشة ، ولأبني
منك إلا ما تبغيه زوجٌ صالحٌ ؛ من ولدٍ يعبدُ الله ، وينفعُ عباده ، فقلت
في نفسي : إن الحسناتِ يُذهبن السيئاتِ ، والحمد لله الذي بدلتني بجياقر
حائبة خائنة ، حياةً سالحةً بريئة ، ثم نظرتُ إليها قائلاً : ذلك فضلُ ساقه
الله لي ، لا كفرَ عن خطيئتي ، وأتوب إليه متاباً ، فقد أضعتُ من
عُمْرِي مدةً غيرَ قصيرة ، في مجونٍ ولهوٍ لا يليقانِ برجلٍ يؤمن بالله
ورسوله ، فأحضرتُ المأذون والشهودَ ، وارتبطنا برباط الزوجية ؛

وقضيتُ معها ليلةً ساهرةً ناعمةً ، كلها لذةٌ ومُتعةٌ ، ولما أردتُ الخروجَ في الصباحِ قالتُ : إنَّ بابَ هذا المنزلِ لا يفتحُ كلَّ عامٍ إلا مرةً واحدةً ؛ وأمامك اثنا عشرَ شهراً حتى يفتحَ المرةَ التاليةَ ، وهُنا ما نحتاجُ إليه من زادٍ وماءٍ ولباسٍ ، فلم أخرجَ ولبثتُ معها سنةً كاملةً ، رزقتُ فيها بغلامٍ منها ، ولما كان وقتُ العشاءِ فتسَّحَّ البابُ ، فهَمَّمتُ بالخروجِ فقالتُ : عَلى أن تعودَ الليلةَ ، وأخذتُ عَلى اليهودَ والموائيقِ بذلك ، ثمَّ برحتُ مسرِّعاً إلى البستانِ ، فلما وجدتُ بابَهُ مَفْتُوحاً ، سُغِيتُ بأمرِهِ ، وظننتُ أن قد تغيَّرَ وضعُهُ ، وتبدَّدَ شملُهُ ، إذ لم يكنْ مُستَساعفاً عندي أن تلبثَ الفتاةُ مرتقبَةً عودتي إليها سنةً كاملةً ، فأردتُ أن أتبيِّنَ الأمرَ قبل أن أرجعَ إلى أُمِّي وأبي ، ودخلتُ البستانَ ، فأدهشَنِي أني وجدتُ الفتاةَ جالسةً ، وقد أسندتْ رأسَها إلى يديها ، وحالَ لونُها ، ونَحَلَ جِسمُها ، فلما رأيتُني فرحتُ ، وهبَّتْ واقفةً ، حامدةً لله سلامتي ، فقلتُ : كيفَ عرفتِ أنَّي قادمٌ إليك الليلةَ ؟ فقالتُ : لا أدري شيئاً عن قدومك الليلةَ ، ولكنِّي عَلى هذه الحالِ سنةً كاملةً ، ولعلَّ خيراً غُيِّبَتْكَ عنى هذه المدةَ المديدةَ ، فأفضيتُ إليها بكلِّ شيءٍ ، وعرفتُ مني أنَّي طائدٌ إلى زوجتي الليلةَ ، فأغبرَّ وجهُها ، وحدقتُ ببصرها ، وقالتُ : لا يصلحُ لي من كان له زوجةٌ وولدٌ ، والآن قد نفضتُ منك يدي ، وسأجرِّعُ زوجَكَ الساكرةَ ، كأساً مريرةً ، من الحسرةِ عليك ، والحزنِ لفقدك ، وسأُلحِّقُك الليلةَ بَابَةِ عَمِّكَ ، التي وَقَّتَكَ في حياتها ، فعنى في آخرتها أُولَى بك مِنِّي

ومن زوجك ، فقلت : ألا تذكرين وصيتها ، لتكرميني بعد مماتها ،
 إذ قالت : الوفاء كرم ، والغدر لؤم ؟ فقالت : رحمها الله ، ومن أجلها
 سأبقى على حياتك ، على أن أجعلك غير صالح لامرأة ، وصاحت بغاءها
 عشر من الجوارى أمسكنني ، حتى قطعت بحري البول مني ، ووضعت
 مكان القطع ذرورا يحبس الدم ، ويعينه أن يسيل ، وأنا أستغيث بها
 باكياء ، ثم ألقيت بي أمام البستان طريدا متبوذا ، فأنستني النجاة بنفسى
 ما حل بي من تلك المصيبة الخالدة ، وذهبت في التوالى زوجي ، وأنا
 مبهور النفس خائر القوى ، فارتاعت لمقدمي على هذه الحال ، وجلست
 بجاني ، تعرف ما دهاني ، فعلمت مني كل ما فعلته بنت الدليلة المحتالة ،
 وكشفت عن موضع القطع مني ، ولما استوثقت من صدق ، أهلتني حتى
 غرقت في نومي ، ولم أدر ما أضرته في نفسها من خير أو شر لي ، ولكنت
 صحوث بعد مطلع الفجر ، فوجدتني ملقى على الأرض أمام بيتها ، فعلمت
 أنها نبذتني نبذ النواة ، بعد أن برز مني عضو النسل وبقاء النوع ، فلم
 أجذ وسيلة إلا أن ألوذ ببيتى ، وأرتعي في أحضان أبي وأُمي ، عائدا
 بحنانهما الذي لا تريد الحوادث إلا قوة وبسطة .

وجدت أمي غارقة في دموعها ، تظللها حسرات من آلامها ، لنيتي
 غيبة تجهولة المراجع والمصير ، فألقيت بنفسى بين يديها ، فأكادت
 تفرح بأوبتي ، حتى اسود وجهها ، أسفا على ما أنا فيه من تغير حال
 وسوء منقلب ، وقامت لساعتها فأحضرت ما لديها من طعام وشراب ،

ونشطت لمواساتي، والحفاوة بمقدسي، حتى طعمت وشربت، ثم جلست
تسألني عن حياتي مدة غيبي، فلم أترك شيئاً سرّني أو أحزّني إلا أخبرتها
به. فقالت: ذلك جزاء ابنة عمك، التي اشترت رضاك وراحتك بحياتها،
فقلت: رحمها الله، فقد كنت أحب إليها من نفسيها، وأرجو من الله
أن يغفر لي خطيئتي، ويتقبل توبتي، وبعد سكتة قصيرة قلت: عسى أن
يكون أبي في خير وعافية!! فقالت، منذ عشرة أيام هاجر من دنياه
إلى آخرته، فسبخت في بحر من المصوم، لا أدري له مدى، أسفا على
أبي وابنة عمي، ثم قالت أمي: جاء حين إعطائك ودعة ابنة عمك لك،
وناولتني هذه الخرقة، فوجدت فيها وصية لي من ابنة عمي تقول: إذا
أصابك الضر من بنت الدليّة المحتالة فاقطع صلتك بالنساء، ولا تسكن
إليها ولا إلى غيرها واتخذ الصبر لك جنة، والحمد لله الذي جعل وفاتي
قبل يومك، حتى لا أخرج كأس الحزن لفقدك، واحتفظ بهذه الخرقة،
واحذر أن تقترب من صاحبها، أو من إحدى النساء غيرها، واعلم أن
صاحبة هذه الخرقة دنيا بنت ملك جزائر الكافور، وهي تصنع كل
سنة واحدة منها، ثم ترسلها إلى الأقطار ليشتريها، فلما وقعت
في يد بنت الدليّة المحتالة ادعت كاذبة أنها أختها، لتستهوي بها من تشاء
من الفتيان، ثم لبنت متلفعا برداء الحزن والهّم اثني عشر شهرا، فرأت
أُمّي تجارا من مدينتي، يتجهزون للسفر بيضا نهم، فأشارت على أن
أسافر بيضا نهم معهم، عسى أن ينفس عني طوافي بالبلاد، ما ألمّ بي من

مكروهٍ وضيّر ، وسرتُ مع صَحبِي ببضائعنا ، تدفعنا مدينة إلى مدينة ،
حتى كُنّا بين يديكَ ، فقال تاجُ الملوك : يَحْيَلُ إلى أن ما أصابكَ لاَ تحتُمَلُهُ
الجبّال ، ولكنّي سائلُكَ عن شيء ، فقلت : سَلْ ما شِئتَ ، فقال : هلْ
تعرف شيئا عن السيدة دنيا بنتِ ملكِ جزائرِ الكافور ، وصاحبةِ هذه
الخرقة ؟ فقلت : بلَغني ممن رآها رأى المين أنها مُنَحّت من جمالِ الخلقة
ما لم تُمنَحهُ أختُ لها ، ولو أنّي لم أَفقدَ مَزيّةَ الرجالِ ما عاقني عن الوصول
إليها عائق ، وإن فُتيتُ في سبيلها .

وَشُفِنَ تاجُ الملوكِ حبّا ، بابنة الملكِ « دنيا » ، وحلت من نفسه
مَحَلّا عظيما ، فأخذني إلى مدينته ، وأودعني داراً من دُوره ، أقيمُ في ظلالِ
وارفة ، من كنفه ورعايته ؛ ثمّ انصرفَ إلى قصره ، وقلبه في شغلٍ بالسيدة
دنيا ، وكيف يحصلُ عليها ، وبرّحَ به الوجدُ والحينُ ، حتى تغيّرَ لونه ؛
وهزلَ بدنه ، فسألهُ والدُه عما يشغله ، حتّى برى جسمه ، فأخبره بحبه
دنيا ابنة ملكِ جزائرِ الكافور ، فقالَ والدُه : إنّها بنتُ ملكٍ ، وبلادُه في
مكانٍ سَحيقٍ عنا ، ولا نستطيعُ الوصولَ إليها إلا بشقِّ الأُنُفُسِ . وأرى
أن تدخلَ قصرَ والدَتِكَ ، فإنكَ واجِدٌ فيه خمسمائةَ جارية ، كأنهنَّ الحورُ
الحسان ، فاخترْ لنفسِكَ منهنَّ من تشاء . وإلا فاطلبِ بنتا غيرَ دنيا من
بناتِ الملوكِ ، فقال تاجُ الملوكِ : لا أريدُ سواها ، والموتُ خيرٌ من الحياةِ
بدونها ، فقالَ والدُه : ما دُمْتَ مُصِرّاً عليها فأتهلّي زُوَيْدًا ، حتى أُرسلَ
في طلبها ؛ ولعلّها تكونُ من حَظِّكَ .

ثم أحضر الملك الشاب الذي أحضر الخرقه ، وكان يسمى عزيزاً وسأله : هل تعرف الطريق إلى مدينة السيدة دنيا ؟ فقال : نعم ، فبعثه هو ووزيره إلى أبيها ملك جزائر الكافور ، ومعهما من الهدايا الفاخرة ما يليق بتلك الوفادة ، ومن الرجال والخدم ما يؤنسهما ويقوم بخدمتهما وقطعوا في السفر الأيام والليالي ، حتى أوفوا على جزائر الكافور ، فالتقوا على شاطئ نهر عصا رحيلهم ، وأوفد الوزير من عنده رسولا إلى الملك يخبره بقدهومهم ، فاستبشر الملك بهذا القدوم الميمون ، وبمات مع الرسول الحجاب والأمرء ، يستقبلون الوزير ومن معه ، ويصحبونهم إلى ملبكهم ، في حفاوة وتكريم .

وجاءوا الملك ، وقدموا له الهدايا ، ومكثوا في ضيافته أربعة أيام ، يتقبلون على فراش من كرم الملك وفضله العظيم .

وفي اليوم الخامس بلغ الوزير رسالته ، فأطرق الملك ملياً يفكر في أمره ، لأنه يعلم زهد ابنته في الزواج ، وبفضها إياه ، ثم استعفته فريحتة ، فأرسل أحد حجابها إلى ابنته ، يستشيرها فيما جاء به وزير الملك سليمان شاه ، فما ألقى عليها رسول أبيها هذا النبأ ، حتى غضبت غضبة عنيفة ، وهمت به لتقتله ، ولكنها عفت عن ظلم الرسول وإهاتيه ، وحملت رسالتها إلى أبيها قائلة : لئن أكرهني أبي على الزواج فسأذيق زوجي الموتة الكبرى وأتبهما بنكية في نفسى ، لا تجعلنى حية أسنى ، فأسرع الرسول إلى الملك وبلغه الرسالة ، وما حاق به عندها من

خطورة ، فقال الملك للوزير : لتشهد أمام ملكك بما علمت ورأيت ،
ولتبليغه أني فرح بهذا الزواج ، ولكن ابنتي صادفة عنه ، وفي ثورة
خطيرة ، ولا أدري لذلك علّة ، فشكر له الوزير جميل لقائه ، وحسن رأيه ،
وذهب إلى الملك سليمان شاه ، وأخبره بكل ما رأى وعلم ، فأحضر ابنة
تاج الملوك ، وشرح له أمر السيدة دنيا على حقيقته ، وخشى أن يصير على
الاستمساك بها فتكون الطريق إلى شقوته ؛ فقال تاج الملوك : دعني
أعالج أمر زواجي بها بنفسى ؛ ولأن أصدف عنه بأية حال ولو كان فيه
حقي ، فقال أبوه : وما دمت متشبثا بها فليكن في صحبتك الوزير
وعزيز ، فإنى لا آمن عليك أن ترحل إليها وحدك ، فقال تاج الملوك :
هذا حسن ، وسنذهب إليها في هيئة تجار ، يؤمون المدن بيضائهم ،
وأمد الملك ابنة بالمال الوفير ، ليكون ردها له في رحلته ، ورزموا
بضاعتهم وساروا بها حتى كانوا بمدينة السيدة دنيا ، فدهش تجارها لما
رأوا من جمال تاج الملوك ، ووضاعة خلقه ، ودلوهم على شيخ سوق المدينة
فذهب الوزير وتاج الملوك وعزيز إليه ، فأحسن استقبالهم ، وأكرم
قدومهم ، وسألمهم عن حاجتهم ، فقال الوزير : إني رجل قطعت من العمر
معظمه ، ومعنى هذان العلامان نؤم المدن بيضاعتنا ، فنقيم سنة في كل
منها ، نمارس التجارة ، ونزود من أحوال الناس ، ثم نغادرها إلى غيرها ،
وقد جئنا مدينتكم هذه ، نبغى المقام فيها سنة ، ونرجو منك أن تهين لنا
دكانا نعرض فيه بضاعتنا ، المدة التي نقيمها بينكم ، فقال الشيخ : رجاؤ

مقبولٌ ، وأمر مطاعٌ ، وكان قد فرح بالفلامين ، وملاً حبهما قلبه .
وجعل يختافُ إليهما في دكانهما ومنزلهما من حينٍ إلى حين ، وشاع أمرهم
في المدينة ، وعرفوا بحسن السيرة ، وجودة البضاعة ، وأتى إليهم الناسُ
من كل حدب ، يشهدوا بضاعتهم ، ويبتاعوا لأنفسهم منها ما يريدون .

وبينا عجوزٌ سائرةٌ وخلفها جارتان ، إذ لحت تاجُ الملوك في دكانه ،
فحبسها في مكانها جماله ، وجعلت تقول : سبحان من جعلك فتنةً
للعالمين ، ومالت إليه وسلمت ، فرد السلام هشاً بشاً ، وأجلسها بجواره ؛
وعلمت منه أنه غريبٌ ، نرح إلى هذه المدينة ، للتجارةِ والمعرفةِ وإفادةِ
الخبرة ، فقالت : أشرقت بك المدينة ، ونزلت فيها على الرحبِ والسعة ؛
وماذا عندك من القماش ، أرني أجودَ ما لديك ، فقال : لدى كثيرٍ من
قماشٍ يتمايزُ جودةً وقيمةً ، وفيه ما يصلح للملوكِ وبناتهم ، فلمن تريدن
القماشَ حتى أعرضَ عليك ما يليقُ به ؟ فقالت : أريدُ قماشاً يصلحُ
للسيدةِ دنيا بنت ملك جزائر الكافور ، فاتقلبت حاله ، إلى بشرٍ يهملُ
في وجهه ، وأملٍ باسمٍ يتألقُ في ثمره ، ويحيا في جسمه ودمه ، وقال
لعزير : هاتِ أغنم ما عندك من القماش ، فأحضر قطعاً جيدة لا تجدُها عند
تاجرٍ آخر ، واختارت منها ما تبلغُ قيمته ألفَ دينار ، وقالت اقترخ
ما تشاء من الثمن ، فقال ، ثمَّه أنا عرفناك ، وحظينا برويتك ؛ وأن
تتقبله هديةً ، فقالت ، يا مبنئ أشكرك ، فاجدت مثل ملاحه
وجهمك ، وحلاوة قولك ، وعذوبة طبعك ، سعدت فتاةٌ كشت لها

وكانت لك ، وسعد فراشُ جمعكما على سنة الله ورسوله ، ما اسمك أيها الشاب الكريم ؟ فقال تاجُ الملوك ؛ فقالت : لئن صدقَ حديثي فأنت ابنُ ملك ، فقال : وأنتى لكِ هذا ؟ فقالت : هذا الاسمُ لا يكون إلا في قصور الملوك ، فقال : جئتُ أهلى على شوقٍ للولدِ عظيم ، فكنت عزيزاً لديهم ، فاختاروا هذا الاسمَ لى ، فقالت : وقالَ اللهَ أعينَ الحساد ، فقد قهرتُ بجمالِك عزّة العباد .

وودعته إلى السيدة دينا ، ووضعت القماش بين يديها ، فراق في عينيها ، وملكَ عليها مشاعرَها ، فقالت العجوز : لا تعجبي من القماش وحُسْنِه ، ولسكنَ العجبَ من جمالِ بائمه ، وكأنّه من غلمانِ الجنة ، فأوِ اجتمعت به ياسيدي ليلة ما ابتغيت عنه حولا ، ولا رضيت منه بديلا . فطامنَ هذا القولُ من اعتزازِ دينا بجمالها ، وترفعها به ، أن يمسّه بشر ، ثم ساورها شكٌ في قول العجوز ، فرجعت إلى إياها وترفعها وقالت : ناوليني القماش حتى أخصه جيّداً ، وبينما هى تُقلّبه فلا ترى فيه إلا ما يرونها ، ساورها أن العجوزَ صادقة ، فقالت : هل سألتَ الشاب عن حاجةٍ له ، حتى يكون لنا يدٌ في قضائها ؛ فقالت العجوز : لا حرّمتنا صدق فراستك ، وسمو نفسك ، وهل يخلو أحدٌ في الدنيا من مأربٍ يطلبه ويسعى إليه ؟ فقالت : بلغنيهِ سلامنا ، وأن المدينةَ شرفتْ بقدمه ، وأنتى طوعُ أمره ، فيما يبتغى من حاجة . وكان هذا البلاغُ برداً وسلاماً على فؤادِ تاجِ الملوك ، وناولَ من فؤره العجوزَ ألفَ دينار ، شاكرآ لها حكمة

سفارتها ، وحبها إياه الذى يبدو فى عينيها ، وقال : حاجتى أن تسكرمى بإعطائك كتاب منى إلى السيدة دنيا ، على أن تأتبنى منها بما تحب ، فقالت : اكتب ما شئت فسيصلها فى الحال ، فكتب : « ضيف مدينتك يشكرمك ، ويرجو أن تسكرميه بزيارتك ، فقد أحبك ، وزاد هياماً بلقائك » .

ثم طوى الكتاب ، وناول العجوز إياه ، فلما رأتها السيدة دنيا قادمة قالت : أخشى أن يكون قد عفا عن طلب ما بينى ، فقد وددت أن أفضى له ما يشاء ، فقالت العجوز : أمرنى بإعطائك هذا الكتاب ، ولا أدري ما يحتويه ، فلما قرأته حامت على وجهها سحابة من ألم وقالت : لولا أننى أخاف من ربى يوماً عبوساً قطريراً لصلبت هذا الشاب أمام دكانه . ثم أطرقت ساحة : فقالت العجوز : وماذا أغضبك من كتابه وأنت الراغبة فى قضاء ما ربه ؟ ! فقالت : جئ بطلبه لما أكرهه ، فكله عشق ومحبة ، وأين أنا من هذا التاجر الجوال فى البلاد حتى ينشد حبي وولّى به ؟ ! فقالت العجوز : وهل يضرب السحاب ، تبع الكلاب ؟ ! ومن رأى أن تجيبه مهددة إياه بالقتل إن لم يرتدع عن ذلك الهذيان ؟ ! فقالت : على بدواة وفرطاس ، وكتبت : « لا تلتمس ما لا يتال ، وإن عدت إليه أصابك حد الحسام » .

ثم طوى الكتاب ، وألقت به فى حجر العجوز ، ولما تجلّى الصباح ذهبت إلى تاجر الملوكة ، وأعطته الكتاب وقالت : لقد ثارت السيدة دنيا

بعد قراءة كتابك ثورة غيظ عيفة ، ولكنى هذمت ثورتها ، وكفكت من غيظها ، حتى ضحكت ورقت لك ، وكتبت إليك هذا الكتاب ؛ فشكرها تاج الملوك وأمر عزيزاً أن يعطيها ألف دينار ؛ ولما قرأ الكتاب وجّم يائساً ، وأطرق حزينا ، فقالت العجوز : وما أفزعك من كتابها ؟ فقال : تهدّنى بالقتل إن لم أكف عن مراسلتها ، وإن الموت أحبُّ إلى نفسي من حياة لا تجمعني بها . فقالت : هَوِّنْ على نفسك ، فسأكون عوناً لك على تحقيق مُرادِك ؛ فقال تاج الملوك : ولكِ عندي خيرُ الجزاء ؛ ثم كتب في قرطاس : « مانع التهديدُ مُحَبِّباً صدقتُ محبته ، وبرئ مقصده ، وهذه أمنية أستعذبُ فيها ورْدَ الرّدى ، والحرُّ الكريمُ لا يحبُّ إلا حرّاً كريماً » .

ثم ناولها الكتاب ، ورَجَا منها أن تضعه في يد السيدة دنيا ، وتساعده في تمكينه من قلبها ، فقالت : طِبُّ نفسك ، فسيمطيك ربُّك فترضى . ولما ناولتها العجوز كتاب تاج الملوك وقرأته ، استمر غيظها وقالت : إن هذا الشاب لا يزال يطمع فينا ، فاذهبى إليه ، وأنذريه القتل إن لم يكف عن هذا . فقالت العجوز : يحسنُ أن تكتبى هذا حتى يشتدَّ خوفه ، ويُحجِمَ عن مطلبه ، فكتبت : « تُرَجِّى وَضلا دونه إدراك الشها ، ولن يطمع فيه إلا مغرور ، فدعْ عنك هذا وإلا فقد حقَّ عليك الثُّبُور » .

ثم طوت الكتاب ، وأمرت العجوز أن تُسرِعَ به إليه ؛ وما قرأه



تاجُ الملوك حتى زفرَ زفرةً حارةً وكتب : « أحييناك وصَدَقَتْ مَحَبَّتُنَا ،
فإِذَا وَصَلَتْ وإِذَا هَجَرْتُ ، وما أَمَدَ هَجْرُ الكَرِيمِ للكَرِيمِ ! ولست
عن حبكِ راجعاً حتى يعودَ اللَّبَنُ دَمًا » . وناولَ المعجوزَ الكتابَ وبِعه
ألفُ دينارٍ وقال : هذا آخرُ كتابٍ أُرسلهُ ، فإِذَا أَمَرَ وَذَا وَحِبَّةٌ ، وإِذَا
أَمَرَ هَجَرَ وَقَطِيعَةٌ . فقالت : إِنَّكَ عِنْدِي كَنُورٍ عَيْنِي ، ولا تَظُنُّ أَنَّني
عاجزةٌ عن الجَمْعِ بِنِسْكَما ، فهوَ لا يَكْفِيُنِي مِنَ الْمُسْكَرِ وَالْحَالِ شَيْئاً ، فَمَرَّ
عَيْنًا ولا تَجْزَع ، ثم دَفَنْتَ ورقةَ تاجِ الملوكِ في شَعرِ رأسِها ، وذَهَبْتَ إلى
السيدةِ دَنيا ، وقالت : ناولتهُ كتابَكَ وتركتهُ ، ولا أَدْرِي شَيْئاً مِنْ أَمْرِهِ ،
ولم يُخْبِرْنِي شَيْئاً أَبْلَغُهُ . في المَدَّةِ الَّتِي جَلَسْتُهَا عِنْدَهُ ، وَبَعْدَ سَكَنَةٍ غَيْرِ طَوِيلَةٍ
قالتَ المعجوزُ : أَشْعُرُ بَوَرَمٍ يَسِيرُ في رَأْسِي ، ولا أَدْرِي لَهُ سَبَبًا ، فقالت
السيدةُ دَنيا : لا بَأْسَ عَلَيْكَ ، أَرِنِيهِ حَتَّى أَتَبَيَّنَهُ ، وجعلتِ السيدةُ دَنيا
تَنكِتُ في شَعرِها حَتَّى سَقَطَتِ الورقةُ . فقالت : وما هَذهُ ؟ فقالت
المعجوزُ : رَما عََلِقْتُ في شَعرِي وأنا جالِسةٌ عِنْدَ التاجرِ ، هاتِها لِأَرُدَّها
إِلَيْهِ إِنَّ كانَتْ مِنْ عِنْدِهِ . فلما قَرَأَتْها السيدةُ دَنيا عََلَتْ وَجْهَها غَضَبَةً
حائِقةً وقالت : ما جَرَّ عَلَيَّ هَذا البَلاءُ إِلا أَنْتِ أَيُّها المعجوزُ المَساكِرَةُ ،
لأَعَذِّبَنَّكَ عَذابًا شَدِيدًا ، جِزاءَ ما قَدَّمْتَ يَدَكَ ، وأمرتِ الجِوارِي أن
يَضْرِبْنَها ، ولما أَشْبَعَتْها ضَرْبًا قالت . لولا خَافَتِي مِنَ اللَّهِ لَقَتَلْتُكَ ، وأمرتِ
بِإِلْقائِها أَمامَ البابِ ، فقامتِ وَهِيَ مَنهوكَةٌ القُوى إلى مَنزِلِها ، ولما جاء
الصَباحُ كانَتْ في دَكانِ تاجِ الملوكِ ، فأخبرتْهُ بِما نالَها مِنْ أَذى في سَبيلِهِ ،

فَنَأْلَمُ مِنْ أَجْلِهَا قَائِلًا : اغْفِرِي لِي مَا أَصَابَكَ مِنْ مَكْرُوهِ بِسَبَبِي ، فَقَالَتْ :
 لَا ضَيْرَ عَلَيْكَ ، وَلَنْ أُبْرَحَ عَنْهَا حَتَّى أَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا ؛ فَسَأَلَهَا عَنْ سَبَبِ
 نَفُورِهَا مِنَ الزَّوْاجِ فَقَالَتْ : مَا رَأَيْتُهُ فِي مَنَامِهَا ، فَقَالَ : وَمَا ذَلِكَ ؟ فَقَالَتْ :
 رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنَّ صَيَادًا نَشَرَ شَبَكَتَهُ ، فَعَلِقَ بِهَا ذَكَرُ حَمَامٍ كَانَ مَعَ زَوْجِهِ ،
 فَلَمْ تَتْرَكْهُ الْحَمَامَةُ ، وَجَعَلَتْ تَنْقُرُ فِي جِزَاءِ الشَّبَكَةِ ، الَّذِي عَلِقَ بِزَوْجِهَا حَتَّى
 خَلَصَتْهُ وَطَارَا ، فَجَاءَ الصَّيَادُ وَأَصْلَحَ شَبَكَتَهُ ، وَتَرَكَهَا لِيَعْلَقَ بِهَا الْحَمَامُ
 إِذَا حَظَّ عَلَيْهَا ، فَعَلِقَتْ الشَّبَكَةَ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِالْأُنْثَى ، فَتَرَكَهَا زَوْجُهَا وَطَارَا ،
 فِي غَيْرِ اهْتِمَامٍ بِشَأْنِهَا ، وَلَمَّا جَاءَ الصَّيَادُ أَمْسَكَهَا وَذَبَحَهَا ؛ فَقَالَتْ السَّيِّدَةُ
 دُنْيَا فِي نَفْسِهَا : هَذِهِ شَرِيعَةُ الرِّجَالِ ، لَا مَرُوءَةَ فِيهَا وَلَا وَفَاءَ . . وَذَلِكَ
 سَبَبُ نَفُورِهَا مِنَ الزَّوْاجِ . فَقَالَ تَاجُ الْمُلُوكِ : وَدِدْتُ لَوْ أَرَاهَا مَرَّةً
 وَاحِدَةً ! فَقَالَتْ الْعَجُوزُ : ذَلِكَ عَلَيْنَا يَسِير . فَإِنَّ لَهَا بَسْتَانًا خَاصًّا بِهَا ،
 تَذْهَبُ إِلَيْهِ كُلَّ شَهْرٍ ، فَتَقِيمُ فِيهِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى قَصْرِهَا ، وَقَدْ
 جَاءَ أَوَانُ خُرُوجِهَا إِلَيْهِ ، وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَذْهَبَ مُخْتَفِيًا إِلَى الْبَسْتَانِ ،
 وَتَكُنْ فِيهِ بِحَيْثُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ ، وَاحْرِصْ عَلَى أَنْ تَفْهَمَ إِشَارَاتِي وَتَطْبِقَهَا ،
 وَلَا تَفَادِرِ الْبَسْتَانَ حَتَّى أَشِيرَ عَلَيْكَ بِمَفَادِرَتِهِ ، فَإِنِّي سَأُحْتَالُ لَتَرَى هِيَ
 جَمَالُكَ ، فَرُبَّمَا أَوْلَعْتَ بِهِ ، فَتَسْمَى هِيَ إِلَيْكَ ، وَسَأُخْبِرُكَ وَقْتُ خُرُوجِهَا
 لَتَنْتَظِرَهَا فِي بُسْتَانِهَا ، ثُمَّ أَغْلِقَ الدَّكَانَ وَصَحْبَ عَزِيزٍ إِلَى مَنْزِلِهَا ،
 وَوَدَّعْتُهُمَا هِيَ إِلَى دَارِهَا .

وَأَفْضَى تَاجُ الْمُلُوكِ إِلَى الْوَزِيرِ بِكُلِّ مَا حَصَلَ ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ تَدْبِيرَ

الأمر، وأن يُشِيرَ بما يرى، فقال: ليلبَسَ كل منكما أَفْخَرَ ما عنده، ولنخْرُجَ الآن إلى البستانِ، فلما كانوا ببابه أعطى الوزيرُ البستانيَّ مائة دينار وقال: نحنُ غرباء، وقد برَّحَ بنا الجوع، فلو أحضرتَ لنا شيئاً نأكله، على أن يكون لك المَالُ الذي أخذته، كان لك علينا فضلٌ عظيم، ففرحَ البستانيُّ بما أخذ من الدنانير وقال: أَدْخُلُوا هَذَا البستانَ وتزَهُوا فيه كما تريدون، ثم اجلسوا حيثُ يَطِيبُ لَكُمْ الجلوس، حتى أحضِرَ من السَّوقِ طعامَكم، فدخلوه فإذا هو منصورُ الزهر، يتسوّع بالنسيم الأريج، ويرُوق بالرواء البهيح؛ وجعلوا يطوفون فيه: تارةً فوق حواشيه، وأخرى في مَماشيه، حتى استقرَّ بهم المطاف تحتَ شجرةٍ تمُدودةِ الأغصانِ، ترشُقُ الشمسُ ظلالها الوارفة، إلى أن جاءهم البستانيُّ بما أحضَره من طعامٍ وشراب.

ولما انتهوا من طعامهم أخذوا يتحدثون؛ فقال الوزيرُ للبستانيِّ: أَلَيْكَ هَذَا البستان؟ فقال: إنه لبنتِ الملكِ السيدةِ دنيا، وإنى أعملُ فيه لقاءَ أجرٍ شهريّ، فقال: وكم تأخذُ من الأجرِ في الشهر؟ فقال: أَجْرِي دينارٌ واحدٌ، فناولَه الوزيرُ ثلاثمائة دينارٍ وقال: أريدُ أن أفعلَ شيئاً قد يكون فيه صلاحٌ وخيرٌ، ففرحَ البستانيُّ بما أخذَ من المالِ وقال: أعملُ ما شئت، فقال: وسيكونُ ذلك غداً إن شاء اللهُ تعالى، واستأذنوه أن ينصَرِفوا إلى منازلهم.

وفي صباحِ الغدِ كانوا في البستانِ ومعهم رَسَامٌ ماهرٌ، فأمره

الوزير أن يرسم على جدار قصر السيدة دنيا ، المشيد في ناحية من بستانها صورة صياد نصب شبكته ، وعلقت بها حمامة ؛ وبجانبا صورة لثلاث الحمامة والصياد يذبحها ؛ وبجانب الثانية صورة صقر هوى على ذكر حمام فأنشبت فيه نخاله ، ثم غادروا البستان إلى منزلهم .

وكانت المعجوز قد عكفت في دارها ، وأرادت السيدة دنيا أن تخرج إلى البستان كعادتها ، وهي لا تخرج إلا في صحبة المعجوز ، فأرسلت إليها ، فجاءتها على عجل ، فقالت لها : لقد عزمت على الإقامة في البستان الأيام المملومة ، وستكونين في صحبتي ، فقالت : أمر سيدي مطلق ، وأستاذك ساعة ، أحضر فيها من بيتي حاجتي من الملابس ، فقالت : على أن تحضري في أقرب وقت .

وذهبت المعجوز إلى تاج الملوك ، وأخبرته أن يذهب من قوره إلى البستان ويحترق فيه ، على أن ينفذ كل ما أشارت به عليه ، فلبس أحسن ما عنده من الثياب ، وأسرع إلى البستان ، فاستقبله البستاني فرحاً وأذن له أن يدخله ، ولبث فيه ما شاء ، وكان لا يعرف محبي السيدة دنيا إلى البستان هذا اليوم ، وأغلق باب البستان ، وأخذ يعالج بعض شؤنه فيه ، فأحس حركة نحو قصر السيدة دنيا ، ولما تبينها وجد السيدة دنيا مقبلة في خطو كالقطا ، والمعجوز والجواري من حولها ، فأسرع إلى تاج الملوك وأعلمه قدومها ، ووصاه أن يحكم اختفائه ، حتى يخرج من البستان دون أن تراه ، ثم أشارت المعجوز عليها أن تأمر الخدم والجواري

بالانصراف ، حتى تأخذَ حرَّيتها بعضَ الوقتِ في وَحدتها ، فأمرتهنَّ أن يرجعن إلى القصرِ حتى ترسل في طلبهنَّ ، وجعلتُ تنقلُ في أرجائه كالطيرِ الطليق ، وتاجُ الملوكِ في مكانهِ من البستانِ بحيث يراها ولا تراه ، حتى وقفتُ أمامَ الجدارِ الذي به الصورةُ المرسومة ، فمَجِبتُ أن وجَدْتُها تحكي ما رأته في منامها ، وقالت : أنظري أيُّها العجوزُ إلى ذَكَرِ الحمام ، فإنه مَقبلٌ في سرعةٍ واهتمام ، لتخليصِ الحمامةِ زوجها ، ولكنَّ الصقرَ انقضَّ عليه فأَنشَبَ فيه مَخالبه ، وحالَ بينه وبين إتناذهِ الحمامة ؛ لقد كُنتُ مخطئةً في بعضِ الرجال ، ورميهم بعدمِ الوفاء ، والآن جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ ، فإنَّ الرجلَ منهم لا يقلُّ عن المرأة ، وفاءٌ ومروءة ، إن لم يُفْقَها ، وكانت العجوزُ قد أشارت إلى تاجِ الملوكِ — ودنيا مشغولة بالصور والتأمل فيها — أن يفادر البستان ، ويسيرَ الهوينى بجانبِ حائطه ، بحيثُ يمكنُها من رؤيته .

ولما رأتُه السيدةُ دنيا ، لبثتْ شاخصةً إليه في سُهومٍ مُدَّة ، والعجوزُ كأنها متشاغلةٌ لا تفقهُ شيئاً ، ثم قالت للعجوز : أنظري إلى هذا الشاب الذي مارأيتُ في الجمالِ مثله ، فنظرتُ إليه وقالت : بلغتُ من العمرِ تسعين سنة ، وما رأيتُ فيها شاباً بلغَ من الجمالِ ما بلغه ، ولعله ابنُ ملكٍ من الملوك ، فأثارُ النعمةِ والمُلكِ عليه بادية — وأشارت إليه العجوز حينئذ أن يسرعَ إلى بيتِهِ — وكانت السيدةُ دنيا قد أغرمت به ، واستمر قلُّها بحبِّه ، فجاست قائلة : وأين ذهبَ هذا الشاب ؟ فقالت العجوز : إنى

مملك ولا يعلم الغيب إلا الله، وربما كان له حاجة في مديننا، ثم قضاهما
وسافر إلى حيث لا ندرى؛ فاحتدم في صدرها الهيام به، وقالت: عليك
أن تحتالي، وتركبي كل خطر في سبيل إحضاره، واجتمعي به وإلا قتلتك
أشنع قتل، وهذه ألف دينار لك، وعندى لك مثلها إذا جاء؛ فقالت
المجوز: لا داعي الآن إلى بقائك في البستان، فارجمي إلى قصرِكَ،
وخلّ سبيلي فأني باذلة جهدي ونفسي في تحقيق رغبتك، وعسى أن
يوفقني الله تعالى؛ فقالت السيدة دنيا: وذلك خير ما نفعل.

وانفلتت المجوز إلى تاج الملوك في منزله، فمرّ لرؤيتها، وانتظر
في لهف ما تقول، فحكت له كل شيء وقالت: وسيكون اجتماعكما
غداً، فقال: أطال الله عمرَكَ، ولا حُرْمننا سديد رأيك؛ وناولها ألف
دينار؛ ثم انصرفت إلى السيدة دنيا، فسا رأتها حتى سألتها عن حبيبها،
فقالت: اليوم عرفت مكانه، وغداً يكون حاضر آ بين يديك، فأبتهجت
ومنتحها ألف دينار، ثم أذنت لها في الانصراف، فرجعت إلى منزلها،
وكانت قرية العين بما غنمت من مال، وبما فازت في المكر والمحال.

ثم ذهبت في الصباح إلى تاج الملوك فألبسته ثياب فتاة، وأمرته أن
يحكي المرأة في مشيها وحركاتها، وألا يكلم في الطريق أحداً ولا يلتفت
إليه، وقالت: ستتبعني إلى قصر السيدة دنيا، فإذا ما ناديت عليك قائلة:
أمرعي يا جازية، فأطع أمري، وعُدّ خمسة أبواب عن شمالك، وأدخل
الباب السادس، فإنك واجد الأميرة في انتظارك.

وسارت بتاج الملوك، وهو في زى جارية، حتى كانت بقصر الأميرة، فاستوقفها كبير الخدم قائلاً : ما شأن هذه الجارية التي معك ؟ فقالت المعجوز : هذه جارية تحذق الأشغال ، وقد سمعت الأميرة عنها ، وأرادت أن تشتريها ، فجننت بها تنفيذاً لأمرها ، فقال : لا شأن لي بالجارية ولا بأحد غيرها ؛ وإذا كان لابد من دخولها فلا بُدَّ من تفتيشها ، فقالت المعجوز : مالى أراك اليوم على غير ما عهدناه فيك من حكمة وهدوء - والتفتت إلى تاج الملوك قائلة : أسرعى يا جارية - ألا تعلم أن الأميرة تنور عليك غاضبة ، إن علمت أنك تعترض سبيلها إلى حيث تريد ؟ وهل الأميرة تطمنئ إلى أن تلمس يديك جسم جارية ، قد تكون من المحظيات لديها ؟ ألا تعلم أنى أحبك وأحرص على راحتك وحمايتك من كل مكروه ؟ وجعلت تشغله وترقيه ، حتى كان تاج الملوك في حجرة الأميرة ، ثم ذهبَت المعجوز إليهما ، فأمرتها الأميرة أن تقف بالباب ، وتصرف ما عداها من الجوارى والخدم ، فصعدت بأمرها ، وغلقت الباب عليهما ؛ ولبتا معاً في حديث وأنس وتمر ، في براءة وعفة ، مدة يوم وليلة ، والمعجوز تتولى وحدها الإشراف عليهما وقضاء شئونهما .

أما الوزير وعزيز فإنه لما لم يحضر تاج الملوك إليهما ، ظنّاً أنه لن يخرج من القصر أبداً ، فرأيا أن يسافرا إلى أبيه الملك سليمان شاه ، ويخبراه بما انتهى إليه أمرُ ابنه ، ليكونَ الرأى بعد ذلك له ، فترحاً من مدينة الأميرة دنيا ، وركبا متن الريح لا يلويان على شيء ، حتى كانا بين

يدعى الملك سليمان شاه ، ففزع لمقدمهما وحدهما ، وكاد الفزع يبدو عابثاً في استقباله لهما ، ولكن حبسه ثبات الملك ورزائته ، ومطاوله الحوادث والصبر عليها ، ولما أخذاً مثواهما بين يديه سألهما عن ابنه ، فقال الوزير : ما أسرعنا بالحمى إلا من أجل إخبارك ، وأفضى إليه بكل ما فى نفسه ، إلى أن قال : ثم انقطعت عنا أخباره ، من يوم أن دخل قصر الأميرة دنيا ، إذ لم يهبط منه أبداً ، ولم نعرف سبيلاً إلى أن نجد ربحه ؛ فقال الملك : فلتعبد الجيوش ، ولنذهب إلى ملك جزائر الكافور ، فإن كان أبنى حياً أتينا به ، وإلا انتقمنا منه له ؛ فقال الوزير : ذلك ما يجب أن يكون ، ونرجو أن تكون المعقبي خيراً .

ونادى الملك فى رعيته ، التى تدين له بالولاء والمحبة ، أن هبوا لنجدة ابن مليككم إن كنتم له غاضبين ، فكان هذا النداء صيحة دوت فى قلوب الشبان والرجال ، فنسلخوا من كل حدب ، وانضموا إلى الجيش الرسمى القائم ، وساروا فياقل تسد الأفق ، حتى قاربوا مدينة الملك شهرمان ، والد الأميرة دنيا .

وفى تلك الأثناء كان تاج الملوك ودنيا فى جنة من وحدتهما وتساقيهما شرباً طهوراً من الولاء والمحبة ؛ وذات يوم قالت له : أنا الآن معروفة لديك ، فهل لك أن تعرفنى بك ؟ فقال : وأن أبيت الغرض من قدومى ، فقالت : نعم ، وسأكون اليد العاملة فى تحقيق غرضك ، فقال : أنا تاج الملوك بن الملك سليمان شاه ، الذى بعث وزيره إلى أبيك ، ليخطبك

لي، فأبيتِ وخرجت عن رغبة أليك؛ وقصَّ عليها تاريخه برُمته، فقالت: ولكنني رضيتُ الآن، فقال: فلأسافرُ إلى أبي ليرسلَ إلى أليك رسولاً يحددُ الخطبة، فقالت: وسأرتقبُ الرسولَ حتَّى أسهلَ له برضائي السبيل، وكانا قد سهرتا طويلاً، يتسامرانِ ويبينانِ قصورَ الآمالِ السعيدة، في حياتهما الزوجيةِ المقبلة، ولمَّا يَنَامَا إلَّا في الهزيع الأخير من الليل، نجاء النهارُ وهما غارقانِ في نومهما.

وبينما كان الملكُ شهرمان جالساً على عرشه، ذُجِّاه صائغ ومعه جواهرٌ قيمتها مائة ألف دينار، فأعجبه صنُّها، وأرسلَ بها كبيرَ الخدم إلى أبنته لتأخذها جميعها، أو تختارَ منها ما يروقها؛ فلَمَّا وصل إلى مقصورتها وجدها مغلقة، والمجوزُ أمامَ بابها نائمة، فأيقظَ المعجوز وأرادها على أن تفتحَ بابَ الحجرة، فخشيتُ أن يفتضحَ أمرها وقالت: أنظرني حتَّى أحضرَ المفتاح، ثمَّ أنفالتُ وخرجت من القصرِ هاربة. ولما لم تعدْ بعد انتظار طويل، ساوَرَ الخادمَ ريبٌ، فمالجَ بابَ الحجرة حتى فتحه، فرأى الأميرةَ دنيا نائمة، وبجوارها شاب على فراشها، ولما أيقظها هبَّت من نومها فزعّة، فقالت له: يا كافور، من المروءة أن تكتمَ أمرى عن أبي، مادمتُ لم أجترح فيه خطيئة أو إثمًا، فقال: وهل بعد ذلك خطيئة؟ إني لا أستطيعُ إخفاءَ شيءٍ عن مَلِكِي ووليِّ نِعْمَتِي، ثمَّ أقفلَ البابَ عليهما، وفرَّ مسرعاً إلى أبيها، فلما كان بين يديه قال: لعلَّ ابنتي قد أعجبتُها الجواهرُ أو شيءٌ منها؟! فقال كافور:

فوجئت بما منّنى عن عرض الجواهر ، فقال : وما فجأك يا كافور ؟
فقال : رأيت عند سيدتى الأميرة شابا جميلا ، نائما بجوارها على سريرها ،
فلم أطق صبرا ، وأغلقت باب الحجره عليهما ، وجئت من فوري إليك ،
فأمر الملك بإحضارهما ، ولما مثلا بين يديه ، وعرف صدق كافور في
خبره ، ثم أن يضرب تاج الملوك بسيفه ، خالت ابنته دون ضربه وقالت :
اقتلى قبله ، وإلا فخل سبيله ، ولا تقتلوا الأبرياء بالظنة ، فأمر الملك أن
يحبسوها في حجرتها ، ثم التفت إلى تاج الملوك قائلا : من أنت حتى
تتذك حرمة قصرى ، وتجتمع بابتى ؟ فقال : تاج الملوك : لا تريب
عليك إن تريئت فى أمرى ، وإن أنت أصبنتى بعكروه ، جلبت على نفسك
وشعبك الويل والثبور ، وخير لك أن تستمع لما أقول ، مبرئا نفسك
من نزغات الهوى ، محكما عقلك وحكمتك ، وليست الشدة فيما تملك
من سلطان وقوة ، وإنما الشدة أن تملك نفسك عند الغضب ، وأعظم
آثار العقل نفعا ، إذا صرف صاحبه ، وقت خطبه وفزعه . فهدأ الملك
وقال : قل ما بدا لك ، وكان وزراؤه جالسين ، فقال تاج الملوك : أعلم
أننى ابن الملك سليمان شاه ، قدمت إلى مدينتك ، محتالا لزواجى من
ابنتك ، ولم أمسسها بسوء ، وقد وقفت إلى الاجتماع بها ، وقبولى زوجا
لها ، وحللت بذلك عقدة لم تستطيع أنت حلها ، إذ رضىت الأميرة
بالزواج ، بعد أن كانت نافرة منه آبيسة ، فإن نلتى بعد ذلك بسوء
هلك وأضعت مملكك ، وهذا كل ما أستطيع قوله . فالتفت الملك

إلى وزرائه وقال: أليس من الحكمة أن نُلقَى هذا الشاب في غيابة السجن حتى نتيقن أمره، ويثبت صدقه أو كذبه؟ فقال كبيرهم: إن وجوده بحجرة الأميرة كفيل بقتله، وإهدار دمه، فهو انتهاك لبيت الملك وحرمته، وقال أحد الوزراء: وكما ننظر في الأمر من أوله، فلننظره من آخره، ولتفكروا في عاقبة ما تفعلون، وكيف يكون القتلُ جزءاً شاب هدفه الزواج، وهو أمرٌ مشروعٌ وليس بجرعة، واحتمال للاجتماع بالأميرة ولكنه كان أميناً نبيلاً، فلم يمسسها بسوء، وغير وجه حياتها، فجعلها ترضى أن تكون زوجاً تؤدي في الحياة رسالتها؟ والرأى عندي أن يودع في مكان مكرماً، حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود في أمره. وقال وزيرٌ آخر: نحن أولو قوة، وأولو بأس شديد، وقد مُسَّت كرامة الملك بتسليمه إلى مقصورة ابنته، فأمر الملك أن يُلقى في السجن معذباً إلى أن يُفصل في أمره.

وما كاد الجنود يسحبونه إلى السجن حتى سمع الملك ووزرائه من المدينة صباحاً وجلبة، كأن أمراً خطيراً وقع، فبعث رسله يتبينون هرج المدينة وضجتها، فجاءوا إليه بنبا عظيم، وذلك أنهم رأوا جيوشاً كأنها قطع السحاب، آتية بخيلها ورجلها وعددها إلى المدينة، فارتاع الملك، وخشى على ملكه أن ينهار بنيانه، ولم يلبث غير قليل في اضطرابه وخشيته، حتى جاءته حجابة، ومعه رسل الملك سليمان شاه، وفيهم وزيره، فألقى عليه تحيته، فردّها بأحسن منها وقال: ما خطبكم أيها

القادمون ؟ فقال الوزير : جاءك الملك سليمان شاه بقوة لا تبق ولا تدر ،
ويبلغك أن ابنه تاج الملوك لديك ، فإن كان معافى سلماً أخذه ورجع ،
ولم يمسه بك بضرٍ ولا أذى ، وإلا فقد حقّ عليك غضبه ، ولا منجاة
لك من يده ، وسيحلّ بكم الدمار ، وخراب الديار ، فقال الملك : انتوني
بالشباب الذي كان معنا الآن ، فلما حضر عرف وزير أبيه ، فسلم وحيّاه ،
ثم التفت الملك شهرمان إلى رسل الملك سليمان شاه وقال : هذا غلامكم ؟
فقالوا : نعم ، فأمر أن يذهب به حجاباً إلى الحمام ، ويلبسه حلة فاخرة ،
فقال الغلام : ولي عند الملك حاجة ، فقال : لك ذلك . ولما جرى به من
الحمام في حلة ثمينة ، وانتظم في مجلسهم ، أخذ يحدث وزير أبيه بما كان
منه ، من يوم أن ضمه قصر الأميرة ، فقال الوزير : ونحن منذ أن غبت عنا
أسرعنا إلى أهلك وأخبرناه ، فجاء بجنديه ، وأوفدنا إلى الملك شهرمان
نسأله عنك ، وهو ينتظر عودتنا ، فقال الملك شهرمان : لازتم رُسل
خير ، ومبعث سلام ، ثم استأذن جلساءه ، على أن يعود إليهم بعد قليل ،
وغادرهم إلى ابنته في حجرتها ، فألفاها قد أمسكت سيفاً في يدها ، لتغمد
في صدرها ، إذا هي علمت أن تاج الملوك نفذ فيه حكم الإعدام ، وذموعها
كأنها سحابٌ منهمر ، فربت أبوها على كتفها وقال : لا بأس عليك ،
وقصّ قصة تاج الملوك وقدم أبيه ، وأعلن إليها أن أمر الزواج موكول
إليها ، فقالت : ولا يرغب عن الزواج بهذا الشاب إلا فتاة بها مس من
العتة والجنون ، فني جميل ، وابن ملك . وعلى خلق كريم ، ولم يخنك في

عريضك مدة طويلة ، كنتُ فيها له ، أطوع من بنائه ، فقال أبوها : الآن
اطمأنت نفسي ، وهذا دمي ، وسأبرم وثيقة زواجك منه الليلة ، في
حضرة والده ، فقرحت ودعت لوالدها بالتوفيق والسداد .

وخرج إلى جلسائه يتהלل وجهه بشراً ، فأمر أن ترسل الهدايا إلى
الملك سليمان شاه ، وأن يسبقه وزيره ورسله إليه ليخبروه أن ابنه في
قصر الملك شهرمان وكأنه أحد أبنائه ، وأنه قادم يدعوك إليه ، ليبرم
زواج ابنتك من ابنته ، ففرح الملك سليمان شاه وقال : الحمد لله الذي لم
يفجعني في ولدي ، ويسر له أمره ، وأنا له مأربه ، ثم استقبل الملك شهرمان
بين عزف الموسيقى ، وتحية الجيوش ، والهتاف بحياته ، وبعد أن جلس
معه قليلاً يتبادلان آيات المحبة والألفة ، هنأ شهرمان بسلامة ابنه ، وفوزه
بنيل بُغيته ، ودعاه إلى قصره ، ليكتب وثيقة زواج ابنه من ابنته .
وتقدمتهما موسيقى الجيش صادحة ، ودخلا المدينة ، بين الجوع
الحاشدة ، والفرحة المبهجة وزغردة النساء ، وخفق الأعلام والبنود ،
إذ كان الملك شهرمان ، أعلن قدوم الملك سليمان ، ليحضر زواج ابنه تاج
الملوك ، من ابنته الأميرة دنيا .

وجاء القضاة والشهود ، فأبرموا عقد الزواج ، ودخل الأمير بالأميرة ،
وأقام الملك وابنه في القصر ثلاثة أيام .

وكان الشاب عزيز فيمن حضر ، فطلبه تاج الملوك ، وأعطاه مائتي
ألف دينار ، وقال له : الآن وجب أن ترحل إلى أمك ، كي تقر عينها بك

وتسعد بجوارك ، ومنحه كل من المسكين مالا جزيلًا ، وودّعه تاج الملوك وداعًا كريمًا .

ولما دخل على أمه ، ألقاها حاكفةً على قبر بنزليها ، أقامتهُ بيديها ، ليكون مبكى لها ، كلما ذكرت ابنها ، فلما رأته خرت لله ساجدةً خاشعة ، وقامت إليه حاضنة مقبلة ، ثم جلست وإياه فرحة مسرورة ، فحدثها بما جرى له ، ووضع بين يديها المال الذي معه ، فزادها فرحًا ومسرّة ، وعاش معها في رخاء وسعة ، حتى وافاها القدر المحتوم .

أما الملك سليمان شاه فقد رجع بجيشه وابنه وزوجه إلى مدينته ، وهناك أقام الولائم ، وحفلات الابتهاج ، بزواج ابنه شهرًا كاملاً ، واعتدل الزمان بهذا الزواج ؛ ونقض عليهم نوره وسروره ؛ وسلامه وصفاءه ؛ وكان تاج الملوك في ذلك كله مثلاً صادقاً في الجهاد ، واحتمال المسكاره ؛ وأسوة حسنة في كبح جماح الهوى ، والاعتصام بالخلق القويم فجزاه الله بما جاهد وسمى ؛ في إخلاص ونزاهة ؛ فوزاً عظيماً ؛ وعزاً مقيماً .



علاء الدين أبو الشامات

كان بمصرَ في الزمانِ الأولِ رجلٌ يسمى شمسَ الدين ، وهو رئيسُ
الشُّجَّارِ ، عُرِفَ بالصدق والأمانة ، فلا يُنْشَى ، ولا يَطْمَعُ ، يَعِشُ في نعمةٍ
من ماله الوفير ، وعِزَّةٍ من جاهِهِ العَرِيفِ ، وكثيرةٍ من الجوارى والمماليك ،
وقضى أربعين خريفاً مع زوجته العقيم التي لم تَلِدْ ، وجلسَ إليه أحدُ
أصحابه في دُكانه فقال : أَرَأَيْتَ هؤلاء التجار ؟ كلُّ تاجرٍ منهم له وَلَدٌ ،
وسِيخْلَفُهُ في تجارتِهِ بعدَ موْتِهِ ، فيستَمِرَّ بَيْتُهُ عامراً ، وذِكْرُهُ سائراً ،
أما أنت فلم تُرزق بولد ، وإذا جاءكَ الموتُ انْطَفَأَ مِصْبَاحُ حَيَاتِكَ ،
وأقْبَلَ بَيْتُكَ ، ونُسِيَ ذِكْرُكَ ، ولا أَدْرِي سَبَباً لِرِضَاكَ بهذه الحالة ،
وأنت رئيسُ التجارِ وأغْنام ، وتَسْتَطِيعُ أن تتزوَّجَ ثانية وثالثة ورابعة ،
ما دامت زوجُكَ الأولَى عقيماً ، فأَمْسَكَ شمسُ الدينَ لِحِيَّتَهُ يَسِدهُ وقال :

نصيحة متأخرة ، وسأنظرُ فيها ، وأرجو أن يهبَ الله لي غلامًا ذكيًا .

فكّر شمس الدين في كلام صاحبه بعد أن فارقه ، فأدرك أنه قصر في حقّ نفسه ، وذهب آخرَ النهار مغموماً إلى بيته ، فاستقبلته زوجته كعادتها ، ولكنه كان زعلاناً متأثراً ، فلم يكن مسروراً بلقائها ، وامتنع أن يتناولَ طعامَ العشاء ، فاهتمّت زوجته لحالته وسألته عما أغضبه وأحزنه فقال : أنت سببُ حزني وألمي ، فقد حلّفتني ليلة الدخول بك ، أني لا أتزوج غيرك ، ولا أتسرّي بجارية ، وقد ظهر لي بعد هذه المدة الطويلة أنك عقيم ، فحزنتي ولداً يرثني ، ويُبقي ذكري ، ويكون امتداداً لحياتي ، فقالت : لو لم لا يكون العقمُ فيك ؟ كان عليك أن تتناولَ الدواءَ المسّمى « معكر البيض » مثلَ غيرك من الأزواج قبل أن تنهني بالعقم ، فإذا تناولته ولم أحبل منك كان العقمُ عندي ، فقال : وأين أجِدُ هذا الدواء ؟ فقالت : عند المطارين .

وفي الصباح ذهبَ شمسُ الدين إلى عطّارٍ وطلب منه « معكر البيض » فضحك العطّارُ في نفسه وقال : كان عندي ونفد ، فذهب إلى بقيّة المطارين وسألهم ، فكان جوابهم مثل جواب العطّار الأول ، فحسب في دكانه حزيناً ، ولم يلبث غيرَ قليل حتى مرّ به نقيبُ الدالّين حسبَ عادته ، فوجده مُطرقاً متغيّراً الحال ، فسأله عما يؤلمه ، فحكى له ما جرى بينه وبين صاحبه ، وبينه وبين زوجته ، وكان هذا النقيبُ من الظرفاء ويسمى « محمد مسمم » ، فابتسم وقال : أفرّح يا رئيسَ التجار ، فقد جاءك

الفرجُ، وأنا الذى أحضر لك هذا الدواء ، ولا يأتى مغربُ هذا اليوم حتى يكون الدواء بين يديك . ثم مضى نقيب الدّالّين ، فصنّع مخلوطاً من القرَنفل والزنجبيل والقرفة وعسل النحل وغيرها ، وأحضره إليه وقال : ذلك هو الدواء ، فخذْ منه مقدار نصف ملعقةٍ صغيرةٍ كل يوم ، وأكثِر من أكل لحم الضأن والحمام ، فشكره ونفَذَ قوله .

ولما جاء موعدُ الحيض ولم تحضْ زوجته علم أنها حملتْ ، وقوى هذا العلمُ ظهورُ آثار الحمل بعدَ أربعة أشهر ، وعمّ الفرحُ البيتَ باستقبال المولود السعيد ، ولما كان جميلَ الشكل ، له شاماتٌ على خديه ، سمّاهُ أبوه علاء الدين أبا الشامات ، وحتى لا يحسُدَه أحدٌ جعلَ له فى البيتِ ناحيةً خاصة لا يدخلُها غريب . ولما بلغ من العمر سبع سنين وكأه إلى عبْدٍ وجارية يقومان بخدمته ، وإلى فقيه يحفظه القرآن ، ويعلمه الكتابة والعلم وذات يوم نسيَ العبدُ البابَ مفتوحاً ، فخرج علاء الدين ودخلَ على أمّه فى مكانها ، وكان معها جمعٌ من نساء الأعيان والكبراء ، فلما رأيته غطّين وجوههنّ وكان لأمّه : كيف يدخلُ علينا فى بيتك شابٌ أجنبيّ ؟ فقالت . إنه أبنى وابن شمس الدين رئيس التجار وزوجى ، فقلن : ما علمنا لك أبنياً قبلَ اليوم ، فقالت : خاف أبوه عليه من الحسد ، فأقرّده ناحية من بيته ، وبظهِر لى أن العبدَ تركَ البابَ مفتوحاً فخرجَ منه وجاء إلينا ، فهتأنا به ، ورَجَوْنَه كل خير

وجعل علاء الدين يتنقّلُ فى بيت أبيه وحديثه ، ويسأل عن كل

شيء يقع عليه بصره، وجاء يوم سأل فيه أمه عن صنعة أبيه، فقالت :
 أبوك تاجر، ورئيس تجار مصر جميعهم، فقال : ولماذا حبستوني في
 البيت ؟ فقالت : ما حبسك إلا غافتنا عليك من أعين الحساد، فقال :
 وهل من القضاء مفر، فقالت : والحدز لا يمنع قدرأ، ولكن ذلك
 لا يمنع من استمساك المرء بالحكمة والحزم، فقال : وإذا مات أبي وقلت
 إنني ابنه فإنه لا يصدقني أحد، وحينئذ تذهب أملاك أبي وأمواله إلى
 بيت المال، ومن الواجب أن أخرج إلى السوق مع أبي، وأشتغل بالتجارة
 مثله، وإذا ذلك أعرف بين الناس أنني علاء الدين بن شمس الدين، فقالت
 أمه سأبلغ أباك ما قلته، وأرجو أن يستجيب لرغبتك .

وحضر أبوه وأطلعته زوجته على كل شيء يرغب فيه علاء الدين،
 ففرح بما سمع، لأنه عرف أن ابنه يحب أن يكون حيا ماملا، فأخضره
 بين يديه وقال . سأخذك معي إلى السوق غدا، فالتزم الكمال والأدب،
 في قولك وعملك، ولا تجعل للكبر سبيلا إلى قلبك، فلن تجد متكبرا
 يحبه أحد، ولا يفتح قلوب الناس لك إلا تواضعك واحترامك لهم،
 فقال : لك الأمر وعلى السمع والطاعة .

ركب علاء الدين خلف أبيه على بغلته إلى السوق، وكان جميل الطلعة،
 وزيده جمالا حسن ملبسه، وجلس يحوار أبيه في دكانه، فظن التجار
 الظنون بشمس الدين، وجعلوا عن هذا الغلام يتساءلون، وأخذوا يتهمون
 شمس الدين في دينه وخلقه، وانفقوا على ألا يذهبوا إليه كما دهم لتحيته

والدعاء له ، وأن يعزّله عن رئاستهم ، ويجعلوها في تاجر آخر ذي دينٍ وخلق .

ومرّ به تقيّب الدالين ، فسأله شمس الدين : ماذا حصل ومنع التجار عن الحضور إلينا كما دأبهم للتحيّة والدعاء ؟ فقال : لا أخفي عليك شيئاً ، فقد أساءوا بك الظن ، حيناً رأوا معك هذا الغلام الجليل ، وعزّموا على أن يعزّلك ، ويؤلّوا غيرك ، فقال شمس الدين : هذا الغلام ابني ، ولك أنت الفضل في محبته ، فأنت الذي صنعت لي الدواء الذي كان سبباً في أن وهب الله لي هذا الغلام ، وقد أخفيت أمره ، وحبسته في بيتي خوفاً عليه من أعين الحساد ، ولما رغبت هو في الخروج معي إلى السوق أحضرته لأعرفه الناس ، وأعلمه التجارة ، حتى يمكنه أن يضطّلع بأعباء الحياة من بعدى ، وقد سمّيته علاء الدين أبا الشامات .

ذهب تقيّب الدالين إلى التجار ، وأعلمهم حقيقة الأمر ، فجاءوا إلى شمس الدين أفواجاً يهنّونه ، ويملّنون ابتهاجهم بولده علاء الدين . وطلبوا إليه أن يقيم وليمةً تليق بمقامه ، شكرًا لله ، وسروراً بهذا الغلام السعيد ، فقال : لكم ذلك ، ولتسكن يوم الخميس المقبل في بيتي .

وأعدّ شمس الدين للمدعوين مالدً وطاب ، من أنواع الطّعام والشراب ، وأعدّ مكاناً للشبان ، يستقبلهم فيه ابنه علاء الدين ، ومكاناً آخر للشيوخ يستقبلهم هو فيه ، واجتمع المدعوون في اليوم الموعود ، فأكلوا وشربوا ، ثم جلسوا يتحدّثون ، كل صاحبٍ إلى صاحبه ، في

شئون مختلفة ، وكان من بين التجار محمود البلخي وكان يُظهرُ الإسلامَ والاسْتِمْسَاكَ به ، ولكنه في حقيقة الأمر مجوسيّ ، يُخْفِي على الناس دينَ المجوسية الذي يَمْتَنِعُهُ ، وما كان أحدٌ يَعْرِفُهُ إلا بأنه مُسْلِمٌ ، فانتَهزَ هذا فُرْصَةَ غِيَابِ علاء الدين عن الشبان في قَضَاءِ حَاجَةٍ ، وَذَهَبَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ من استطاع أن يجعلَ علاء الدين يُسَافِرُ في تجارةٍ ، أعطيتُهُ مُكَافَأَةً قِيَمَةُ ثَمَّ رَجَعَ إِلَى مَجْلِسِ الشَّيُوخِ .

ولما عادَ علاء الدين إلى الشبان أَجْلَسُوهُ بَيْنَهُمْ ، وَأَخَذُوا يَتَحَادَثُونَ ، فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ لِصَاحِبِهِ : مَنْ أَيْنَ جِئْتَ رَأْسَ مَالِكٍ يَا حَسَنَ ؟ فَقَالَ : كَانَ مَعِيَ أَلْفُ دِينَارٍ ، وَرَثْتُمَا عَنْ وَالِدَتِي ، فَاشْتَرَيْتُ بِهَا بِضَاعَةً ، وَسَافَرْتُ بِهَا إِلَى الشَّامِ فَرَبِحْتُ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ ، ثُمَّ اشْتَرَيْتُ بِهَا بِضَاعَةً مِنَ الشَّامِ ، وَرَحَلْتُ بِهَا إِلَى بَنْدَادٍ ، فَكَسَبْتُ أَلْفَي دِينَارٍ ، وَهَكَذَا أَخَذْتُ أَشْتَرِي وَأُسَافِرُ وَأَبِيعُ وَأَرْبَحُ ، حَتَّى بَلَغَ رَأْسُ مَالِي عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ ، وَلَمَّا سَأَلَ الثَّانِي قَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ وَهَكَذَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلَّا علاء الدين فَقِيلَ لَهُ : وَأَنْتَ يَا سَيِّدِي ؟ فَقَالَ : لَيْسَ لِي حَاجَةٌ فِي السَّفَرِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : إِنَّكَ مِثْلَ السَّمَكِ إِنْ فَارَقَ الْمَاءَ مَاتَ ، إِذَا السَّفَرُ بَابُ الرِّزْقِ الْوَاسِعِ ، وَالتَّعَارُفِ النَّافِعِ ، وَالْعِلْمِ السَّاطِعِ ، وَهُوَ نَفَرُ التَّجَارِ ، وَتَبْصِرَةٌ لِأَوَّلَى الْأَبْصَارِ .

فَارَقَ علاء الدين الشبانَ ، بَعْدَ أَنْ أَشْعَلُوا حُبَّ السَّفَرِ فِي صَدْرِهِ ، وَذَهَبَ إِلَى أُمِّهِ فَنَقَلَ إِلَيْهَا حَدِيثَ الشَّبَانِ ، وَأَنَّهُ مِنْ أَجْلِهِ مُهَيَّئٌ عَلَى السَّفَرِ إِلَى بَنْدَادٍ ، لَمَّا يَتَوَقَّعُهُ فِيهَا مِنْ رِيحٍ عَظِيمٍ ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : إِنِّي رَاضِيَةٌ بِالسَّفَرِ

ولكَ من مَالِي عشرةَ أحمالٍ من القماش ، وسأمرُ النّلمان أن ييدمه وافي إعدادها من الآن ، ولكن لا تسافر حتى يحضرَ أبوك وتستأذنه ، وسيبعثُ معكَ إن أذنَ أصنافاً من البضائع ، يقبلُ على شرائها الزبائنُ والتجارُ من كلِّ ناحيةٍ ، وستجد فيها ربّحاً وفيراً .

ولما عرضَ أمرُ السفرِ على أبيه قال له : الغربةُ مُرّةٌ يا بُنَيَّ ، وقد قيل : من سعادةِ المرء أن يُرزقَ في بلده ، فقال علاء الدين : السّفرُ من أماراتِ الرّجولة ، والثقةِ بالنفس ، والإيمانِ بمخالقِ الجنّ والإنس ، وقد منّ الله على قریش برحلتين ؛ رحلةِ الشتاء ، ورحلةِ الصيف ، ولولا أن للرحلةِ خيرٌ أم مأسوساً ما كانت من النّعم التي يمنُّ الله بها على عباده ، فقال أبوه : رطاك الله في سفرك ، وأزجّعك سالماً إلى بلدك ، ثم أمرَ غلمانَه أن يعطوه أربعين حملاً كانت مُجهزةً ، فمن الواحد منها ألف دينار ، وناوِله من الدنانير ألفاً وقال له : إن وجدتَ البضائعَ رابحةً فيها ، وإن رأيتَ سوقها كاسدةً فأفّقْ على نفْسِكَ من هذا الألف حتّى ترتفعَ الأسعارُ ، وتستقيمَ الأحوالُ ، واحذر في طريقك غابةَ الأسد ووادي السّكّاب ، وقطّاعِ الطُّرق ، وعجّلان وجماعته .

وكان رجلٌ يُقالُ له كمال الدين المكّام مسافراً إلى بغداد إذ ذاك ، فوصّاه بابنه علاء الدين ، ووصّى ابنه أن يُطيعه ولا يعصى له أمراً ، أما محمود البُلخي فقد كان مديناً لشمس الدين بألف دينار ، وقد جعل سفره إلى بغداد وقت سفرهما ، فوصّاه شمس الدين بابنه ، وأمره أن يُعطيه

الألف دينار التي عليه ، وكان له أربعة منازل : في مصر ، وفي الشام ، وفي حلب ، وفي بغداد ، ولما وصلوا إلى الشام أرسل محمود البلخي إلى علاء الدين ليضيفه في منزله ، فاستشار المكّام فنّمه أن يذهب إليه ، وكذلك لم يرض المكّام أن يذهب علاء الدين إلى البلخي في حلب ، حينما طلب إليه أن يضيفه في بيته بحلب .

وفي طريقهم بين بغداد وحلب دعاه البلخي إلى وليمة ، فاستشار المكّام فنّمه أيضاً ، ولكن علاء الدين خالف التّكّام هذه المرة .

وذهب إليه ، فإليّ ، غير قليل حتى تفر من البلخي ، وخرج من مجلسه غاضباً ، لأنّه عرفه رجلاً مجوسياً ، ولكنه يندع الناس ويظهر إسلامه ، وطلب إلى المكّام أن يعجل بالازتعال من هذا المكان ، تاركا المجوسي محمودا البلخي ، وكان المكّام يكره انقسام القافلة حتى لا تكون ضعيفة أمام عدو أو قاطع طريق ، ولكنه رضى بالفرقة والرحيل ، تنفيذاً لإصرار علاء الدين

واستأنف المسير هو وعلاء الدين وعلمائهم ، ومعهم دوابهم وأموالهم ، حتى وصلوا وادياً ، فتشبّث علاء الدين بالمبيت فيه على كُرّه من المكّام ، الذي كان من رأيه أن يواصلوا السير ، حتى لا يتمرّضوا لمخاوف الطريق .

ولما جاء الليل هجم عليهم عجلان وجماعته ، وجعلوا يقتلونهم واحداً واحداً ، حتى لم يبق إلا علاء الدين ، فاحتال هو لينجو بنفسه ، وخرج

من حُلَّتِهِ ، وتَقَلَّبَ بِقَمِيصِهِ فِي دِمَاءِ الْقَتْلِ ، وَاسْتَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ مَلْطَعًا
بِدِمَائِهِمْ ، كَأَنَّهُ قَتِيلٌ مِنْهُمْ ، ثُمَّ أَمَرَ عَجْلَانُ جَمَاعَتَهُ أَنْ يَمْشُوا بِالْقَتْلِ ،
وَيَسْتَوْبِقُوا بِسُيُوفِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ مَاتُوا ، وَكَانَ عَجْلَانُ هُوَ نَفْسُهُ يَسْتَوْبِقُ
بِسَيْفِهِ مِنْهُمْ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى عِلَاءِ الدِّينِ ، وَرَفَعَ سَيْفَهُ لِيُضْرِبَ بِهِ ، لَدَغَتْهُ
عَقْرَبٌ فِي رِجْلِهِ ، فَصَرَخَ وَشُغِلَ بِنَفْسِهِ ، هُوَ وَجَمَاعَتُهُ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا
فِي نَجَاتِ عِلَاءِ الدِّينِ مِنَ الْقَتْلِ ، ثُمَّ حَمَلُوا الْأَمْوَالَ عَلَى دَوَابِّهِمْ ، وَفَرَّوْا بِهَا
غَائِبِينَ فَرَحِينَ .

وَفِي الصَّبَاحِ كَانَ مُحَمَّدُ الْبَلْخِيُّ الْمَجُوسِيُّ قَدْ وَصَلَ إِلَى هَذَا الْوَادِي
فَوَجَدَ الْقَتْلَى وَدِمَائِهِمْ ، وَوَجَدَ عِلَاءَ الدِّينِ ، لَا يَزَالُ حَيًّا ، وَقَصَّ عَلَى الْبَلْخِيِّ
مَا أَصَابَهُمْ ، فَأَظْهَرَ لَهُ أَلَمًا وَحُزْنًا عَظِيمَيْنِ ، وَأَشْفَقَ عَلَى عِلَاءِ الدِّينِ ،
فَأَلْبَسَهُ حُلَّةً جَدِيدَةً مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَرْكَبَهُ بَغْلَةً ، وَسَارَ بِهِ إِلَى بَيْتِهِ فِي بَعْدَادٍ
وَهُنَاكَ أَدْخَلَهُ الْحَمَامَ وَأَكْرَمَهُ ، وَلَكِنَّ عِلَاءَ الدِّينِ لَمْ يُطِقْ مَجُوسِيَّتَهُ ،
فَتَرَكَهُ فِي بَيْتِهِ ، وَخَرَجَ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ ، حَتَّى وَجَدَ فِي طَرِيقِهِ مَسْجِدًا
فَدَخَلَ فِيهِ ، لِيَتَّخِذَهُ مَقَامًا وَمَأْوَى ، إِلَى أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ لَهُ بَابَ الْفَرَجِ .

وَبَعْدَ بُرْهَةٍ رَأَى فَنُوسِيْنَ فِي يَدَيِ عَبْدَيْنِ أُمَامَ تَاجَرَيْنِ ، وَمُ
مُتَقَبِلَيْنِ عَلَيْهِ ، وَسَمِعَ أَحَدَ التَّاجَرَيْنِ يَقُولُ لِلْآخَرِ : أَمَا نَصَحْتُكَ يَا أَبْنَ أَخِي
أَنْ تَسْتَقِيمَ وَتَتْرَكَ الْحُمُقَ وَكَثْرَةَ الْخَلْفِ بِالْعِلَاقِ ؟

قَالَ عِلَاءُ الدِّينِ : ثُمَّ التَفَتَ فَرَأَى جَالِسًا جَلِيسَةَ انْكِسَارٍ وَحُزْنٍ وَمَذَلَّةٍ ،
فَسَأَلْنِي : مَنْ أَنْتِ أَيُّهَا الْغَلَامُ ؟ فَحَكَيْتُ لَهُ قِصَّتِي مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا إِلَى

أَنْ قُلْتُ : وَلَمْ أَجِدْ إِلَّا هَذَا السَّجْدَ فَاغْتَصَمْتُ بِهِ ، وَأَوَيْتُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لِي :
 أَرَأَيْتَ لَوْ أُعْطِيتُكَ أَلْفَ دِينَارٍ وَحُلَّةً جَدِيدَةً ، فَهَلْ تَقْبَلُ مِنِّي ؟ فَقُلْتُ :
 وَلَئِي سَبَبَ يَكُونُ مِنْكَ هَذَا لِي ؟ فَقَالَ : هَذَا ابْنُ أَخِي ، زَوْجَتُهُ ابْنَتِي
 زَيْدَةُ ، وَهُوَ يُحِبُّهَا وَلَسْكَنْهَا تُبَغِّضُهُ ، وَحَدَّثَ أَنَّ طَلَّقَهَا مَلَامًا ، فَاتَّخَذَتْ
 بَنِي مِنْ ذَلِكَ الطَّلَاقَ وَسِيلَةً لِمَسْتَحَالَةِ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَلَسْكَنِّي أُعْطِفَ
 عَلَى ابْنِ أَخِي ، وَأُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلَى عِشْرَتِهِ ، وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا تَزَوَّجْتَ
 غَيْرَهُ ثُمَّ طَلَّقَهَا ، وَقَدْ اتَّفَقْتُ أَنَا وَابْنُ أَخِي عَلَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الزَّوْاجُ
 مِنْ رَجُلٍ غَرِيبٍ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَدْ وَجَدْنَاكَ ، وَرَضِينَا بِكَ لِعَمْرَيْتِكَ ، وَشَرَفَ
 مَنِيِّكَ ، وَكَرَّمَ أَصْلِكَ ، فَتَعَالَ مَعَنَا وَبَيْتَ مَمَّا هَذِهِ اللَّيْلَةَ بَعْدَ أَنْ نُبْرِمَ
 عَقْدَ زَوَاجِهَا ؛ قَالَ علاء الدين : فَلَمْ أَجِدْ مَقَرًّا مِنْ أَنْ أَرْضَى ، حَتَّى أَتَقَدَّ
 نَفْسِي مِنَ الضَّيِّقِ الَّذِي نَزَلَ بِي .

وَذَهَبُوا إِلَى الْقَاضِي ، فَأُبْرِمُوا عِنْدَهُ عَقْدَ الزَّوْاجِ ، وَجَعَلُوا مُقَدِّمَ
 الصَّدَاقِ عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ ، فَإِذَا مَا جَاءَ الصَّبَاحُ وَطَلَّقَهَا أَعْطَوْهُ
 مَكَافَأَتَهُ ، وَإِنْ أَبَى أَنْ يُطَلِّقَهَا طَالَبُوهُ أَنْ يَدْفَعَ مُقَدِّمَ صَدَاقِهَا ، وَمُقَدَّارُهُ
 عَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ .

وَكَانَ ابْنُ عَمِّ زَيْدَةٍ وَمُطَلَّقَتُهَا لَهُ جَارِيَةٌ يُحْسِنُ إِلَيْهَا ، وَتَشْمَرُ بِمُطْفَهِ
 عَلَيْهَا ، وَهِيَ كَثِيرَةُ التَّرَدُّدِ إِلَى زَوْجَتِهِ الْمَطْلُوقَةِ زَيْدَةٍ ، وَكَانَ علاء الدين مِنْ
 الْجَمَالِ وَالْحَسَنِ بِمِثْلِ لَا يَرَاهُ إِنْسَانٌ إِلَّا أَحَبَّهُ ، فَخَافَ أَنْ تُحِبَّهُ زَيْدَةُ ،
 وَلَا تَرْضَى بِفِرَاقِهِ ، فَوَصَّى جَارِيَتَهُ هَذِهِ أَنْ تُدَبِّرَ حِيلَةً تَحُولُ بَيْنَ علاء الدين



وزبيدة، فقالت: لا تخف، فلن يملكها بيده بل لن يراها بعينه، ثم
أسرعت إلى علاء الدين وقالت له: جئتكم ناصحة لله ورسوله، فقال:
نعم، فقالت: هذه الفتاة مريضة بالجذام فلا تلمسها، وإلا أصابك جذامها
وخسرت حياتك، فقال: ما دمت صادقة في نصيحتك فليس لي برؤيتها
حاجة، ثم فرّت إلى زبيدة مشرعة فقالت لها ما قالته إلى علاء الدين،
فاغتاضت وقالت: وهل أنا جاهلة فأتصل بهذا المريض وأخسر جالي
وشبابي؟! إن ذلك ما لا يكون، ولن أجعله يقترب مني، وليبت هذه
الليلة وحده، وفي الصباح يمضي إلى سبيله.

وجمع الزوجين الحجر المدة لهما، فاتخذ كل منهما لنفسه فيها
مكاناً قصياً، ثم بدأ علاء الدين يتلو سورة يس، بصوتٍ لذيذٍ طربت
له زبيدة، وخيل إليها أنها لم تسمع في حياتها صوتاً شبيهاً مثله، فازنابت
في خبر الجارية وقالت: لا يمكن أن يكون لمريض الجذام مثل هذا
الصوت الجميل، ولا بد أن تكون الجارية كاذبة، لأمر ما كلفت
تنفيذه، ثم مدت يدها إلى عودٍ فأصلحت أوتاره، ثم غنت على إيقاعه
فكان كذلك وقَّعه الجميل في نفس علاء الدين، وعجب أن تكون مريضة
بالجذام وتحسن الضرب على العود، ويكون لها مثل هذا الصوت الجميل،
فارتاب أيضاً في خبر الجارية، ولكنه كان في خيرة من أمره، أكثر
مما كانت زبيدة.

وغلب على زبيدة اعتقادها كذب الجارية، فقامت إليه وأقربت

منه ، فقال : أبعدى عني حتى لا أصابَ بِجُذَامِكَ ؛ فزاد يقينها بكذب الجارية ، وكشفت له عن جسمها فلم يجدَ إلا نضارةً وحُسناً ، فدَّ يده إليها فقالت وهي ضاحكة : لا تلمسْ جسمي حتى لا أصابَ بِجُذَامِكَ ، فكشَفَ هو عن جسمه فبدا لها كأنه قطعةٌ من جسمها جمالاً وحُسناً ، وضاعت حيلةُ الجارية ، فأُتمَرَ الزَّواجُ بينهما تلكَ الليلة .

وفي الصباح جلسَ إلى زبيدة قائلاً : سأستودِعُكَ اللهُ بعد ساعة ، فقالت : أكانَ هذا زواجاً أم ضيافة ؟ فقال : أريدُه زواجاً ، ولكن أباك يريدُه ضيافة ، فقالت : أفصحْ لي عما تريد ، فقال : شرطُ أبوك أن أَعِيشَ معك الليلة ، ثم أَسْرَحَكَ في الصباح ، فإن أبيتُ ألزمتني بدفع مقدّم الصداق ، ومقدارُه عشرةُ آلاف دينار ، ولا أملكُ منها ديناراً واحداً ، فقالت : إن كنتُ تريدُنِي فأمنِسْكِ عَليكَ ، وإذا طلبوا منك الطلاقَ فقل : الشمرةُ الواحدةُ منها بألف دينار ، فإذا رفعُوا أَمْرَكَ إلى القاضي فإنك واجدٌ عنده حكمَ الشريعةِ الفراءِ ، الذي لن تجدَ فيه ظُلماً ولا هَضْماً ؛ ففعلَ علاء الدين ما أشارت به زوجته .

ولما سألهُ القاضي : لماذا لم تطلّقِ زوجَكَ ؟ قال : كيف أتزوجُ الليلة راضياً ، وأطلّقُ في الصباح مُرغماً ؟ فقال القاضي : لا يقعُ الطلاقُ القهريُّ وليسَ في مذهبِ المسلمين إكراهُ أحَدٍ على أن يُطلّقَ زوجته ، فطلبَ أبوها أن يدفعَ مقدّم الصداق ، فقال علاء الدين : لا أملكُ الآنَ دِرْهما فأمهلونِي ثلاثةَ أيام ، فقال القاضي : أمهلناكَ عشرةَ أيام .

ثم رجع علاء الدين إلى زوجته وأخبرها ما حصل ، فقالت : أصبر
فإن الصبر من عَزَمِ الأمور ، والليالي يَلِدْنَ كلَّ عَجِيبٍ ؛ وبعد صلاة
العشاء جلستُ تغنى وعودُها في يديها يردُّ غناءها ، فسمعتُ طرقاً ياب
دارها ، ولما فتح الباب علاء الدين ، وجد أربعة « دراويش » فقال لهم :
ما حاجتكم ؟ فقالوا : نحن « دراويش » وغرباء ، نحفظُ الموشحات
والأشعار ، ونزغِبُ أن نكون ضيوفاً عندك الليلة ، لتكرمنا بالمبيتِ
والإيواء ، وسماعِ هذا الصوتِ الجميل ، فقال : أهملوني حتى أعود إليكم ؛
وذهب فأخبر زبيدة فقالت : قلبي يحدثني أن هؤلاء « الدراويش » باب
خير لنا ونعمة ، إن نحنُ أكرمناهم وأويناهم ؛ فأحضرتهم وأفسح صدره
لهم . ولما جلسوا عرض عليهم طعاماً فقالوا : ليس بنا حاجة إلى طعام ،
ولكننا كُنَّا نَسْمَعُ مُنْجِيَةً فأين ذهبت ؟ فقال علاء الدين : إنها زوجتي ؛
وحكى قصته وقصتها ، ورأيتها في إكرامهم وإيوائهم ، فقال درويش منهم :
لا تحزن ، وسأجمع لك مقدّم الصداق من « دراويش » وأحضره
إليك ، ولكننا نحبُّ الآن أن نسمع الغناء الذي هو لواحد كالغناء ،
ولآخر كالهواء ، ولنغيرهما كالروحة ، ثم سهروا معظم الليلة في سماع
النساء حيناً ، ومطارحة الحديث ورواية الأخبار حيناً ، وباتوا حتى
الصباح ، ثم انصرفوا شاكرين .

كان هؤلاء « الدراويش » هارون الرشيد ، وجمعُقر البرمكي ،
وأبائواس ، ومسرورا السياف ، وقد ساروا في المدينة على تلك الهيئة ،



لتعرّف أحوال الرعيّة ، حتى كانوا أمام دار زبيدة ، وسمّوا غناءها ، ونتمّت عودها ، فرغبوا في دخولها ، ليعرفوا أحوال من فيها . وقبل انصرافهم وضع هارون الرشيد مائة دينار تحت السجادة التي كان يجلس عليها ، فلما رفعتها زبيدة وجدتها ، فقالت لزوجها : لقد وضع « الدراويش » هذه الدنانير لنا على غير علم منا ، لئنفقها في شئوننا ، إذ أنك شكوت لهم ما تقاسيه من ضيق في الرزق ، وذلك ما حدّثني به نفسي عند استئذانهم ، فإن عادوا مرة أخرى فرحب بهم ، فقد جعل الله رزقنا على أيديهم .

واستمر « الدراويش » يأتون كل ليلة ، ويتركون مائة دينار تحت السجادة ، تسع ليال متواليات ، ثم تخلفوا عن الحضور الليلة العاشرة ، فقال علاء الدين لزبيدة : أرايت كيف تخلف « الدراويش » ولم يمطوني مقدّم الصداق الذي وعدوني به ؟ وسيطلبه أبوك غداً مني ، ولا أدري حينئذٍ ما أقول ، فإن استمرّت بنا العشرة وجاءونا فلن أفتح لهم ، فقالت زبيدة : ما أسرع ابتئاسك وضجرك ! أنسيت لهؤلاء « الدراويش » فضلهم ؟ أليسوا هم سبب ما نحن فيه من الغنى والرخاء بما كانوا يتركونه كل ليلة من الدنانير ؟ فإذا عادوا فلا تطردهم ، فإن نفسي لا تزال تحدّثني أن خيراً عظيماً سينالنا على أيديهم ، أما مقدّم الصداق فأخلص إلى الله اعتمادك عليه فيه ؛ وإن ينصركم الله فلا غالب لكم .

وفي اليوم التاسع ، وهو صبيحة الليلة التاسعة ، أمر الخليفة هارون الرشيد أن يُحضروا له خمسين رجلاً من أقشة مصرية ، بحيث يكون ثمن

كل حمل ألف دينار، وعبدًا حبشيا، ثم أمر أن يرسلَ هذا العبدُ وتلك
الأحمالُ إلى علاء الدين في صبيحةِ اليومِ العاشر، ومعه الكتابُ الآتي:
مِن شمس الدين رئيسِ التجارِ بمصر — إلى وَلَدِه علاء الدين
أبي الشامات

السلامُ عليكم ورحمة الله

بَلَّغْنِي أَنْ قَطَاعَ الطَّرِيقِ نَهَبُوا أَمْوَالَكَ، وَقَتَلُوا غِلْمَانَكَ، فَأَرْسَلْتُ
إِلَيْكَ مَعَ عَبْدِ حَبَشَى خَمْسِينَ حِمْلًا مِنْ أَقْشَةِ مِصْرِيَّةٍ، وَعَشْرَةِ آلَافِ دِينَارٍ
لِتَذْفَعَ مُقَدِّمَ الصَّدَاقِ لَزَوْجِكَ؛ وَجَمِيعُ أَهْلِكَ بِخَيْرٍ، وَنَرْجُو لَكَ عَوْدَةَ
سَالِمَةً ..
والدكم

شمس الدين

بمصر

وفي الصباح الباكر من اليومِ العاشر طرقَ بابَ دارِ زبيدة طارق
فأسرعَ علاء الدين إليه وفتحه، فوجدَ والدَ زوجته وابنَ أخيه الذي طلقها،
أَتِيَا إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، لِيُطَاقَ زَبِيدَةُ أَوْ يَدْفَعَ مُقَدِّمَ صَدَاقِهَا،
أَوْ يَذْهَبَ مَعَهُمَا إِلَى الْقَاضِي لِيَفْصَلَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَوَجَدَ مَعَهُمَا بِالْبَابِ
عَبْدًا حَبَشِيًّا، مَعَهُ خَمْسُونَ حِمْلًا، فَنَازَلَهُ الْكِتَابَ وَقَرَأَهُ، فَعَرَفَ كُلَّ شَيْءٍ،
وَكَانَ أَبُو زَبِيدَةَ قَدْ سَأَلَ الْعَبْدَ، وَعَرَفَ مِنْهُ أَنَّهُ عَبْدُ غِلَاءِ الدِّينِ، وَأَنَّ هَذِهِ
الْأَحْمَالُ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِ وَالِدَهُ:

التفت علاء الدين إلى والدِ زبيدة، ومد إليه يده قائلاً: خذْ مُقَدِّمَ
صَدَاقِ ابْنَتِكَ، وَخُذْ هَذِهِ الْأَحْمَالُ فِيمُهَا فِي السُّوقِ وَلَكَ رَجُحُهَا، أَمَا

رأس المال فاحفظه لى أمانةً عندك حتى تأتيني به ، فقال : لن آخذَ شيئاً من الأحوال ، وأما المهرُ فارجعْ الفصل فيه إلى زوجك ، ولا دَخَلْ لى بينكما ، فإِذَا أَخَذْتَهُ ، وإِذَا أَبْرَأْتَ ذِمَّتَكَ مِنْهُ ، ثُمَّ دَخَلُوا الدارَ وَنَقَلْتَ الْأَحْوالَ إِلَى مَخْزَنِ فِيهَا .

وطلبَ الزوجُ المطلقَ من أبى زبيدة أن يأمرَ علاء الدين بطلاقها ، فقال له : ليسَ من الحقِّ ولا من الدين أن يُرغمَ زوجٌ على طلاق زوجته ، وإن أكرههُ أحدٌ وطلقها فإنَّ الطلاقَ لا يقع ، فعلمَ أنها أفلتت من يده وخرج حزينا ، فاعتكفَ فى بيته ، ثم أصابه مرضٌ فقضى عليه .

وأما علاء الدين وزبيدة فقد أَمِنَا مِنْ مَخَافَةِ الطلاق ، وفَرِحَا بِالْأَمْوالِ الَّتِي جَاءَتْهُمَا مِنْ مِصرَ وَبَيْنَا هِيَ تُعْمَى كعادتها ، إِذْ طَرَقَ « الدراویش » الباب ، فلَمَّا لَقِيَهُم علاء الدين قال : مَرَجَبًا مِنْ أَخْلَفُوا مَواعِدَهُمْ ، تَفَضَّلُوا وَخَذُوا بِجَالِسِكُمْ ، ثُمَّ سَأَلُوهُ عَمَّا فَعَلَ فى مَسْأَلَةِ زَوْجِهِ فَقَالَ : لَنْ يُضَامَ عَبْدٌ فى رِعايةِ اللَّهِ ، فَقَدْ أَرْسَلَ لى وَالِدِى مِنْ مِصرَ أَمْوالا وَأَحْمالا ، واصطَلَحْتُ أَنَا وَأَبُو زبيدة ، وَشَمَلْنَا الاطْمِئْنانَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . وَقَامَ حِينَئِذٍ هَارُونَ الرَّشِيدُ إِلَى دَوْرَةِ الْمِياه ، فَاتَمَزَّ جَعْفَرُ هَذِهِ الْفِرْصَةَ وَقَالَ لِعَلَاءِ الدِّينِ : كَمْ يَوْمًا يَقْطَعُهَا الْمَسافِرُ مِنْ مِصرَ إِلَى بَغْدَادَ ؟ فَقَالَ : أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، قَالَ : وَمَا عَدُّ الْأَيَّامِ الَّتِي مَضَتْ عَلَى نَهَبِ أَمْوالِكَ ؟ فَقَالَ : فَقَالَ نَحْوُ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا ، فَقَالَ : وَهَلْ تَصَدِّقُ أَنَّ خَبَرَ حادِثَتِكَ يَصِلُ إِلَى أَيْتِكَ فى مِصرَ ، ثُمَّ يَرْسِلُ إِلَيْكَ هَذِهِ الْأَمْوالِ فى تِلْكَ الْمَدَّةِ ؟ فَقَالَ لَا أَصَدِّقُ ،

ولكن سألني العبدُ الحبشيُّ كتاباً من والدي ، فقال : أنت الآن في
 حضرة الخليفة هارون الرشيد ، وهو الذي ذهبَ إلى دورة المياه ، وأنا
 وزيره جعفر ، وهذا أبو نواس ، وذلك مسرور السيف ، والخليفة هو
 الذي بعثَ العبدَ والأموالَ والكتابَ إليك ، فلما قدمَ الخليفة نهضَ إليه
 علاء الدين فقبلَ يديه ، ودعا له باليمن والسعادة ، فقال له : أنت رئيسُ
 التجارِ في بغداد ، بدلا من أبي زبيدة زوجك ، فإذا كان الغدُ فاذهبَ إلى
 الديوان واجلسْ في مكانه لتقومَ بتصريفِ الأحوال ، فقال له سمعاً وطاعة
 وبعد أن سهرُوا ما شاءوا من ليلتهم في غناء وطرب انصرفوا مشكورين
 وكان علاء الدين وزبيدة في بيتهما جالسَيْن ، فقامتُ تقضي شأننا
 من مشئون بيتها ، فصرختُ صرخةً واحدة ، جعلتُ زوجها يذهبُ إليها
 مسرعا ، فوجدَها جثةً هامدة ، وكانَ بيتُ أبيها أمامَ بيتها فسمعَ تلكَ
 الصرخة ، وحضرَ على أثرها فعرفَ أن زبيدةً ابنته ماتتُ فجأة ، ثم دفنتُ
 في حقلٍ رائع .

وذهبَ الخليفةُ في حاشيته إلى بيت علاء الدين ليعزيه فوجده حزينا
 فقال له : المؤمنُ من صبر ، ورَضِيَ بالقدر ، ولاك في الله خيرُ العوض ،
 ولا مقرَّ من الموت ، ثم قال له : يا علاء الدين . أنت ضيفي الليلة القادمة
 ولما كانَ في حضرة الخليفة ، أمرَ أنْ تحضرَ جاريةٌ من جواريه تُسمَّى
 قوتَ القلوب وتُغنى ، لتُسلِّيَ علاء الدين وتُخفِّفَ عنه أحزانه ، فلما انتهتُ
 من غنائها سأله عن صوتها فقال : صوتُ زبيدة أحسنُ ولكن هذه أهدأ

منها في الصنعة ، فقال . هل أعجبتك ؟ فقال : نعم ، فقال : قد أهديتها
إليك ومعهما أربعون جارية من جواربها ، ثم أمر أن تنقل هي وجواربها
وأناسهن إلى بيت علاء الدين . فأجلست هي بالباب حارمين من غلمانها
وقالت لهما : إذا جاء علاء الدين فقولاً له : إن سيدتي قوت القلوب
تدعوك إليها ، فلما قيل له ذلك قال : ما كان للمخدوم لا ينبغي أن يكون
للخادم ، ولن أقرب منها أبداً ، ولها عندي أن أنفق عليها كأنها في بيت
الخليفة . ولما علم بذلك هارون الرشيد ردها وجواربها إلى قصره ، وأعطى
جعفراً عشرة آلاف دينار ، ليشتري بها من السوق جارية تُعجب
علاء الدين ، فأخذَه إلى سوق الجوارب لشراء جارية له تنفيذاً لأمر الخليفة
وكان لمدينة بغداد والي من قبل الخليفة يُدعى خالداً ، وله ولدٌ قبيحُ
المنظر يُسمى حبظلم بظاظة فذهب هو أيضاً إلى سوق الجوارب
ليشتري لابنه هذا جارية ، إذ أنه من القبح بحيث لا ترغب امرأةٌ قبيحة
أن تزوجه ، وكان ذلك في اليوم الذي ذهب فيه جعفرٌ لشراء جارية
إلى علاء الدين .

فرّ الدلال على جعفرٍ بجارية تسمى ياممين ، فجملَ ثمنها ألف دينار ،
ثم مرّ بها على خالدٍ والي بغداد فزاد هذا الثمن ديناراً واحداً ، ورجع
الدلالُ بها إلى جعفرٍ فجعله ألفين ، ثم زاد الوالى ديناراً واحداً وهكذا
كلما زاد الوالى ديناراً زاد جعفرُ ألفاً حتى بلغَ ثمنها عشرة آلاف ، فدفعها
وسّمتُ إليه ، ولكن علاء الدين أعتقها في الحال وتزوجها حرة ، حتى

لا تكون أسيرة البيع والشراء ، ولما علم ابنُ الوالى أن ياسمين يبعث وأعتقت وتزوجت رجع إلى البيتِ حزينا كئيبا ، فسألته أمه عما أحزنه ، فأخبرها ما جرى له فى سوقِ الجوارى مع علاء الدين ، ثم اشتدَّ به الحزن حتى ألزمه الفراش ، يقاسى آلام الضعف والهزال .

و ذات يوم دخلت على أمه عجوز تدعى أم أحمد قائم العرافة ، فوجدتها فى شدة الحزن ، فسألها عما أحزنها ، فحكّت لها حكاية ابنها ، فقالت العجوز : لو كان ابنى أحمد قائم السراق غير مقيّد فى السجن لأحضر لابنك الجارية ياسمين ، ولو كانت تحت طبقات الأرض ، فقالت أم حبظلم : وما حكاية ابنك ؟ فقالت العجوز : أخذ يسرق ، ويسرق ، ويسرق حتى تمّ الخليفةُ بقتله ، ليريح الناس منه ، ولكن الوزير شفع فيه قائلا : السجن قبرٌ للأحياء ، فأمر الخليفة أن يقيّد فيه حتى الممات ، فإن أنت جعلت زوجك الوالى يشفع له عند الوزير ، وهذا يشفع له عند الخليفة ، وأطلعته من قيده وسجنه ، وأرجعه إلى أمه وبيته ، أحضر لابنك ياسمين وأنت مستريحة ، فقالت : على إطلاق سراحه من سجنه ، وعليك أنت إحضار الجارية ، واتفقتا على ذلك .

وبلغت أم حبظلم زوجها خالدا حديث العجوز وما اتفقتا عليه ، فذهب إلى الوزير ورجا منه أن يشفع فى إطلاق أحمد قائم من سجنه ، شفقة بالعجوز أمه ، ثم قال الوزير للخليفة : جاءتنى عجوز لو أطلعت على رؤسها وضعفها ، وحزنها وبكاها لأجبتها إلى ما تطلب ، مهما يكن شأنه

فقال الخليفة : وماذا تطلبُ ؟ فقال الوزير : لها ولدٌ يدعى أحمد قاتم ،
حكيمٌ عليه أن يُقيّدَ في سجنِهِ حتّى يماته ، وتقول : إذا كان قد تابَ وأُتابَ
فأرجموه إلى أمه ، فقال الخليفة : ها توهُ بين يديّ ، فلما حضَرَ سألهُ الخليفة :
هلَ ندمتَ على فِعْلِكَ ، ورجعتَ إلى ربِّكَ ؟ فقال : تبتُّ إلى الله ، ورجعتُ
إلى الله ، وندمتُ على ما فعلتُ ، وعزمتُ على ألا أعودَ أبداً إلى ارتكاب
ما يفضِبُ ربِّي ، وأشهدُكم وأشهدُ الله على ما أقول ، ففَعّاهُ الخليفة ،
وأمرَ أن يخلَى سبيله ، وفرح قاتمُ بخروجه من سجنِهِ ، وعودتِهِ إلى الحياة
الحرّة ، كما فرحتُ أمّه يا تقاذِ ابنها من العذاب ، ورجوعه إليها بعد النياب
وذاث يوم قالت لابنُها . إن والى بغداد هو الذي خلّصك من السجنِ
على شرطٍ أن تقابلَ المعروفَ بالمعروفِ ، والإحسانَ بالإحسان ، فقال :
سأردُّ الجليلَ أضعافاً مضاعفةً ، فرى بما تريدن ، فقالت . يُريدُ منك أن
تقتلَ علاء الدين أبا الشامات ، وأن تأتيَ بزوجته ياسمينَ إلى ابنه جظلم
بظاظة ، فقال . سأقوم بتنفيذ هذا فوراً .

وكان للخليفة حجرةٌ خاصّةٌ ، بها مصباحٌ من ذهب ، جَعله ثلاث
جواهرَ غالية ، وكان يتركُ فيها حلته ، وخاتمه ، ومسبّحته ، إذا غادرها
إلى حجرة نومهِ ، فاحتالَ أحمد قاتمُ حتّى صعدَ فوق سقيفها ، وأزالَ غطاء
فتحة فيه ، وتدلىَ منها على حبلٍ كان معه ، ثم سرقَ الحُلّةَ والمصباحَ والخاتمَ
والمسبّحةَ وماد من حيثُ أتى ، وذهب بها إلى بيتِ علاء الدين ، ودَقّها
في أرضِ حجرةٍ من حجراتهِ ، ولكنه أخذَ المصباحَ لنفسِهِ . وفي الصباح

ذهب الخليفة إلى الحجرة فلم يجد الأشياء المسروقة ، فغضب وأحضر الوزير ، وحكى له ما حصل بحجرته الخاصة .

استدعى الوزير والى بغداد ، فحضر ومعه أحمد قائم — وكان قد جملة رئيس الخفراء بعد أن عفا عنه الخليفة — وسأله عن حالة الأمن في بغداد ، فقال : على أحسن حال ، فقال الوزير : كأنى بك كاذب أو جاهل أو غافل !!! لقد سرق الليلة من حجرة الخليفة الخاصة المصباح والحلة ، والخاتم والمسبحة ، فأجاب أحمد قائم . ذلك مكان لا يجرؤ أحد أن يقرب منه أو يصل إليه ، وما كان السارق في رأيي رجلا بعيداً أو غريباً ، فدود الخلل منه فيه ، وأرى من الحزم تفتيش بيوت المقرّبين من حاشية الخليفة ، وفيهم الوزير والوالى وعلاء الدين ، فقال الخليفة : قد أمرتك بتفتيش ما تشاء من البيوت ، وسيكون القتل جزءاً من سرق ، وإن كان أحب الناس عندي .

فتش أحمد قائم قصر الخليفة ، وقصر وزيره جعفر والوالى ، والأمراء والحجّاب ، ثم ذهب إلى بيت علاء الدين أبى الشامات ، ومعه جماعة من ولاية وشهود ، ولما أخبروه بما جرى قال لهم : ولا بد من تفتيش بيتي ، فدخل قائم وجماعته البيت ، وقصد بهم إلى الحجرة التي دفن فيها ماسرق ونش المكان المعروف له ، وأخرج منه الحلة والخاتم والمسبحة ، وكتبوا شهادة بذلك ، وقّع عليها جمعهم ، وقبضوا على علاء الدين ، وساقوه إلى الخليفة .

أما زوجته ياسمين — وكانت حاملا — فقد أرسلها قائم إلى أمه ،
وأمرها أن تذهب بها إلى خاتون زوج الوالى ، ليحظى بها ابنها حبظلم .
وهنا يلجُ القارىءُ أمرين يشيران من طرفٍ خفى إلى كذب
الجريمة المنسوبة إلى علاء الدين : أما أحدهما ففيه المصباح ، وأما الآخرُ
فإرسال ياسمين فى الحال إلى حَبْظَلَم .

ولما دخلتُ العجوزُ أم قائم على زوجة خالد والى بغداد ومعهما
ياسمين ، فرحت فرحاً عظيماً ، ونهضَ ابنُها حبظلم من مكانه ، ولما اقترب
منها رفعت يدها بمنجبر كان معها وقالت : ابعذ عني وإلا قتلتك ،
فقال أم حبظلم : كيف تمتنعين عن أبى ؟ لا بدّ من تعذيبك ؛ وأما
علاء الدين فلا بُدّ من شنقه ، فقالت ياسمين : ولن أموت إلا على الوفاء
له ، ثم نزعَت أم حبظلم عن ياسمين ما عليها من ملابس حريرية ، وألبستها
ملابسَ صوفية خشنة ، وأمرتها أن تقومَ بالخدمة فى المطبخ وقالت :
هذا جزاؤك فأجابتها : كل شيء أَرْضَى به إلا أن يقترب منى ولدك ،
فالموت أقربُ إليه منى ، وقد ابتأسَت جوارى خالد من ظلم ياسمين ،
فعمطنَ عليها وساعدنَها فى أعمالها خفية .

أما علاء الدين فقد جاءوا به إلى الخليفة ، ومعهما جميعُ ما سرقَ إلا
المصباح فقال : وأين المصباحُ يا علاء الدين ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ،
ما سَرَقْتُ ، ولا عَلِمَ لى بشيء من ذلك أبداً . فقال الخليفة : يا خائنُ ،
أحسنًا إليك فَأَسَأْتُ ، واستأمنالك فخننت ، ثم أمر به أن يُشنق



وكان في بغداد إذ ذاك شيخ طريقة صوفية يدعى أحمد الدنف ، وله أتباع كثيرون ، وقد اتخذ علاء الدين أبنائه في الله ، فذهب إليه « السقا » وقال له : أدرك بعمرك تلك علاء الدين ، فهو في طريقه إلى المشقة ، فالتفت أحمد الدنف إلى حسن شومان ، وكان حاضرا ، وهو من عمال الخليفة في السجن ، كأنه يسأله عن رأيه في علاء الدين فقال : إن علاء الدين مظلوم ، وما سرق إلا عدو له يريد أن يقتله ، وسيجعل الله نجاته على يدي ؛ ثم قام حسن شومان من فوره إلى السجن ، وأمر أن يسلموا له رجلا محكما عليه بالقتل عدلا ، ومن حسن الحظ أن كان ذلك الرجل أشبه الرجال بعلاء الدين شكلا ، فذهب به إلى جندی الشق ، وأفهمه أن علاء الدين مظلوم حقا ، وهذا الرجل بدل منه ، وهو من المسجونين المحكوم عليهم بالقتل عدلا ، فناولته علاء الدين ، ونفذ القتل في ذلك البدل الأثيم ، وأنسل حسن بعلاء الدين إلى أحمد الدنف ، فقال له : كيف تسرق أشياء الخليفة ، وقد أحسن إليك واتخذك أمينا ؟ فقال : ورب السكبة ما سرقت وما علمت ، فقال : ولكن أصبح من الواجب أن ترحل من بغداد فوراً ، فإن الماقل لا يسكن إلى معاداة السلطان ، فقال : وإلى أين أهرب من ذلك الظلم ؟ فقال : سأذهب بك إلى الإسكندرية ، وأقيم هناك حتى أطمئن على راحتك ثم أعود إلى بغداد .

ووصى أحمد الدنف أن يقولوا : إنه خرج يتوفاً البلاد إذا ما سأل عنه الخليفة ، وسار هو وعلاء خارجين من بغداد حتى وصلوا إلى حقول

السكرم والحدائق والبساتين ، فلقيا هُناك يهوديين راكبين بَعْلَتَيْنِ ،
وأدركَ أَحَدُ أَنهما يريدان بهما شَرًّا ، فمَجَّلَ بقتلهما ، وأخَذَ مَآمِعهما من
النقود ، وكان مِقْداره مائتي دينار ، ثم رَكِبَا البَعْلَتَيْنِ وسارا حتى مَدِينَةَ
إِيَّاسَ ، وَهُنَاكَ أودَعَا البَعْلَتَيْنِ فِي إِصْطَبَلٍ وَبَاتَا فِيهَا ، وفي الصَّبَاحِ باعَا
البَعْلَتَيْنِ ، وَرَكِبَا مِنْ مِينَاءِ المَدِينَةِ مَرَكِبًا إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ ، وَبَيْنَمَا هُمَا ماشيان
فِي سُوقِهَا وَجَدَا دَلَالًا يَمْرِضُ لِلْبَيْعِ دُكَّانًا ، مِنْ وَرَائِهِ مَكَانٌ بِهِ مَخْزَنٌ
وَاسِعٌ ، وَقَدْ بَلَغَ ثَمَنُ جَمِيعِهَا تِسْعَ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ دِينَارًا ، فَجَمَلَ علاء الدين
الْثَمَنَ أَفَافَ دِينَارٍ ، فَرَضَى صَاحِبُهَا ، وَبَاعَهَا إِلَيْهِ وَتَسَلَّمَهَا .

وَجَدَ أَحْمَدُ علاء الدين الدُكَّانَ مَفْرُوشًا بِالْبُسْطِ وَالْمَسَانِدِ ، ثُمَّ فَتَحُوا
الْمَخْزَنَ فَوَجَدُوا فِيهِ قِلَاعًا وَسَارِيَاتٍ وَحِبَالًا ، وَصِنَادِيقَ وَسُكَّانٍ ،
وَكَثِيرًا مِنْ عُدَدٍ وَأَلَاتٍ لِصِنَاعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، كَالْجِزَارَةِ وَالْحِيَاكَةِ وَالتَّجَارَةِ
وغيرها ، لِأَنَّ صَاحِبَهُ كَانَ مَقْطِيعًا ، يَتَجَرَّ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُسْتَعْمَلَةِ ، رَدِيئَةً
كَانَتْ أَوْ غَيْرَ رَدِيئَةٍ ، صَالِحَةً لِلِاسْتِمَالِ أَوْ غَيْرَ صَالِحَةٍ .

أَقَامَ أَحْمَدُ مَعَ علاء الدين ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْتَزِقَ مِنَ التَّجَارَةِ فِي
هَذَا السَّقَطِ الَّذِي وَجَدَهُ بِالْمَخْزَنِ ، وَاسْتَأْذَنَهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى بَغْدَادَ لِيَبْجِثَ
عَنْ عَدُوِّهِ ، الَّذِي دَبَّرَ لَهُ مَكِيدَةَ اتِّهَامِهِ بِالسَّرْقَةِ وَالْحُكْمِ بِقَتْلِهِ ، وَبِنَتِيقِهِ لَهُ
مِنْهُ ، ثُمَّ يَأْخُذْهُ مِنَ الْخُلَيفَةِ أَمْرَ الْأَمَانِ ، لِيَسْتَطِيعَ الْعُودَةَ إِلَى بَغْدَادَ .

وَلَمَّا وَصَلَ أَحْمَدُ إِلَى بَغْدَادَ سَأَلَ حَسَنَ شُومَانَ : هَلْ طَلَبْنِي الْخُلَيفَةُ
فِي أَثْنَاءِ غَيْبَتِي ؟ فَقَالَ لَا ، وَلَمْ يَعْلَمْ عَنْكَ شَيْئًا هَذِهِ الْمُدَّةَ ، وَلَسْكَنْهُ جَلَسَ

يتحدث إلى وزيره يوماً في شئون مختلفة إلى أن قال : أَرَأَيْتَ كَيْفَ قَابِلِ
علاء الدين إحساننا إليه بالإساءة إلينا ، وإثمتنا له بخيانتنا ؟ فقال جعفر :
وقد لقيَ الخائنُ جزاءه ، وكان مصيره القتل المهيِّن .

أما حبظلم بظاظه ، ابنُ خالدٍ والى المدينة ، فاعتراه مرضٌ لم يمهله ،
ومات دون أن يتمكّن من غرضه ؛ وأما ياسمين فقد لبثت محافظةً على
نفسها ووفائها لعلاء الدين زوجها ، فتّمت مدة حملها ، ووضعت ذكرًا
رائع الجمال ، فسّمته وحيداً ، وكان شبيهاً بأبيه ، ومن بديع حكمة الله
أن جعلَ له في نفسِ خالدٍ والى المدينة حُبّةً وعطفًا ، فتبنّاه وقال لأُمّه :
إذا سألكِ أحدٌ عن أبيه فقولى : أبوهُ خالد ، فقالت : سمعًا وطاعة ،
خافَةً منه ، وطَمَعًا في أن يكفله ، ثم تولّاه بالتربية والتعليم ، والتدريب على
فنونِ الضربِ والطعنِ ، حتى حذِقَ ذلك كلّهُ ، وأصبحَ فيه لا يُشَقُّ
له غبار .

ولما بلغَ عشرين سنةً اجتمع بأحمد ققام واختلط به كأنه أحدُ
أصحابه ، وذاتَ مرّةٍ جلسَ أحمدُ هذا وتناولَ كأساً من الخمر على ضوءِ
مصباحِ الخليفةِ ، الذى كان قد سرقه ، فأعجبَ المصباحُ وحيداً ، وطلب
أن يُهديه إليه ، فقال : لن يكون ذلك ، هذا مصباحٌ قتلتُ به نفساً ،
فقال له : وكيف ذلك ؟ فحكى له قصة السرقةِ ، وقتلِ علاء الدين فيها ،
ففهم وحيدٌ من القصة أن ياسمين أُمّه ، وأن علاء الدين والدّه ، وأن أحمد
ققام هذا سببُ شقيقه وقتله ظالماً وعدواناً .

ولما ذهبَ إلى أمِّه وسألها عن أبيه وقصِّته ، أحاطته علماً بكل ما حدثت وقالت : إذا قابلت أحمد الدنف ، فاسأله أن يني بوعده ، ويأخذ لك بثأراً بيك ، فلما طلبَ وحيدٌ منه ذلك سأله : ومن أبوك ؟ ومن الذي قتله ؟ فقال : أبي علاء الدين ، وقد قتله أحمد ققام ، فقال : ومن أعلمك هذا ؟ فقال : جمعي أنا وأحمد ققام مجلسُ شراب ، فسكّر فيه على مصباح الخليفة ، ولما أعجبنى هذا المصباح سألتُه أن يهديه لي ، فقال : لقد قتلت فيه نفساً ، ثم قصّ عليّ قصةَ أبي و قتله ، فقال : سأشيرُ عليك بما تفعله ليقتل الخليفة أحمد ققام وأنت مُستريح ، فقال : وما ذاك ؟ فقال : إذا خرجَ خالدُ والفرسانُ إلى الضرب والطعن في مجلسِ الخليفة ، فالبسْ درعك ، وتقلّد سيفك ، واخرج معهم ، وحاولْ أن تُجيدَ الضرب والطعن وفنون القتال حتى تُعجبَ الخليفة ، ويدعوك إليه ليُكَافئك بإعطائك ما تريده ، فإذا سألك عما تريدُ فقلّ : أريدُ أن تقتلَ قاتِلَ أبي ، فإن قال : إنّ أباك خالدٌ ، وهو لا يزال حيّاً لم يمت فقلّ : إنّ أبي علاء الدين أبو الشامات ، وقصّ عليه قصة المصباح واعترف أحمد ققام ، ثم اطلب أن يأمرَ بتفتيشه ، وأنا أخرجُ المصباحَ من جيبي ، وحينئذٍ يظهرُ الحق ، ويأمرَ بقتله .

خرجَ خالدٌ ومعه الفرسانُ ووحيد ، وجعلوا يلعبون ويعرضون على الخليفة ألواناً من الضرب والطعن والقتال ، وكان من بينهم جاسوس مدسوس ، لقتلِ الخليفة ، برميةٍ سَهمٍ طائشة ، ولكنَّ وحيداً تلقى هذه

الرمية الموجهة إلى صدر الخليفة بترسيه ، وعمد إلى راميتها فأرسل إليه سهمًا نفذت في صدره ، فوقع قتيلًا ، ففرح الخليفة ، وأعجب بوحيد وأحبّه ، وأحضره في الحال أمامه وقال : سلّ باوحيد ما شئت فإني مُطيعك ، فقال : أن تقتل قاتل أبي ، فقال الخليفة : إن أباك خالدٌ ، وهو لا يزال حيًّا لم يمِت ! فقال وحيد : إنَّ خالدًا هذا ربّاني بعد شنق والدي علاء الدين ، وحكى له ماجرى بينه وبين أحمد قائم من حديث الصباح وطلب تفتيشه في الحال ، فأمر الخليفة بتفتيشه ، وفي الحال أخرج أحمد الدنف من حَبّ أحمد قائم مضباح الخليفة ، فلم يسع قائم إلا أن يمتّرف بالحقيقة ، فأمر بإلقائه في السجن مقيّدًا حتى يُصدّر فيه حكمه ، وأمر أن تُنقل ياسمين إلى بيت زوجها علاء الدين ، وأن يرَدَّ إليها جميعُ أملاك زوجها ؛ ثم قال لوحيد : وماذا تريد بعد ذلك ؟ فقال : أن تجتمعني بأبي علاء الدين ، فقال : لقد شُنق أبوك ظلماً فيما نعلم ، ولكنّ القدر قد يكون حفظه من هذا المذوان الصارخ ، فأجرى في أمره ما لا نعلم ، وقد جعلتُ لمن يبشّرني بأنه لا يزال حيًّا مكافأة سنّية ، وقضيتُ له جميع ما يطلب ، فتمتّم أحمد الدنف وطلب الأمان من الخليفة ، فقال : أنت آمنٌ فقل ما شئت ، فقال : إنَّ علاء الدين لا يزال حيًّا ، وقد فدّيته أنا بمن يستحقُّ القتل من المسجونين ؛ أما هو فقد فرّرتُ به إلى مدينة الإسكندرية ، وفتحتُ له هناك دكان سقّطى يرتزق منه ، ولا يزال يعمل فيه إلى الآن ، فقال : عليك أن تجيء به إلينا ، وقد أمرتُ لك بعشرة

آلاف دينار، تنفق منها حتى تُخَصِّرَه ، فقال : سمعًا وطاعة ، وأخذ النقود وسافر في الحال إلى الإسكندرية .

كان علاء الدين قد باع السقط ولم يبقَ منه إلا قليل ، وكان من بين السقط خُرزة ملء الكفة ، لها سلسلة من ذهب ، وعليها طلاسيم كأرجل النمل ، فعلقها في مكان بارز من دكانه ، فرآها قنصل وطلب إليه أن يبيعهما له بثمانين ألف دينار ، فقال علاء الدين : يفتح الله علينا ، فقال القنصل : أشتريها بمائة ألف دينار ، فقال : بعتهما فناولني عنهما ، فقال القنصل : ذلك ممن لا أقدرُ على تحله ، فهات الخُرزة مَعَكَ ، وأصحبني إلى المركب ، وهناك أعطيك الثمن وأخذ الخُرزة .

أفقل علاء الدين دكانه ، وأعطى جازًا له مِفْتَاحَه وقال : إن طالت مدة غيبتى وجاء أحمد الدنف فأعطه المِفْتَاحَ وأخبره أنى ذهبتُ مع القنصل إلى المركب لأخَصِّرَ ثمن الخُرزة ، فقال له : مع سلامة الله ، وسأفقد ما أردت .

وهناك في المركب أَصَرَ القنصلُ على أن يكرم علاء الدين وَيَسْقِيَه شَرابًا تحيةً لقدميه ، فناوله كأسَ شراب به « بِنِج » وما شربه علاء الدين حتى كان في غيبوبة ، لا يدري فيها من أمره شيئًا ، ثم أمر القنصل أن تطلع المركب وتسير ، وفيها علاء الدين ، حتى كان في وسط البحر ، بحيث لا يرى له ساحل ، فأعطاه شَرابًا آخر ، جملةً يُفِيق من غيبوبته ، ولما أفاق قال : أين أنا الآن ؟ فقال القنصل : أنت الآن وَدِيعَةٌ في يَدِي ، حتى أوصلك

إلى قصر قيطون بمدينة جنوة . فأسلم الأمر لله وسكت .

وقابلهم مراكب فيه أربعون من تجار المسلمين ، فهجم القنصل ورجاله عليهم ، ونهبوا أموالهم وساقوهم أسرى إلى مدينة جنوة .

ودخل القنصل ومعه علاء الدين والأربعون تاجراً قصر قيطون ، فقالت له صبيّة فيه : هل أحضرت الخرزة وصاحبها ؟ فقال : نعم ، وأحضرت معهما أربعين أسيراً من تجار المسلمين ، ولما جاؤا بهم إلى والى المدينة أمر بضرب أعناقهم ، فنفذ القتل فيهم واحداً بعد واحد ، حتى نهاية الأربعين ، وحيّ بعلاء الدين لينفذوا فيه القتل أيضاً ، فخرّجت من بين الجمع عجوز وقالت للملك : أما قلت لك : عندما يحمي القنصل بالأسرى تذكر الكنيسة بأسير أو أسيرين ؟ فقال : لو ذكرتني من قبل لأعطيتك حاجتك ، ولكن خذى هذا الأسير الباقي يخدم في الكنيسة ، ففرح علاء الدين بذلك ، لأنه نجّا من القتل ؛ ولما كان في الكنيسة سألت العجوز عما يفعله ، فقالت : تأخذ في الصباح البغلة وتذهب إلى الغابة وتحملها حطباً ثم تعود ، وبعد هذا تجمع أبسطة الكنيسة وتكنسها ، وتغسل أرضها ، ثم تفرشها كما كانت ، ثم تأخذ نصف إردب من التمتع فتعزّله وتطحنه وتمجنّه وتخبّزه ، ثم تأخذ وجبة من العدى فتنظفها ونطحها ، ثم تملأ هذه الفسقيّات الأربع ماءً ، ثم توزّع الطعام على راهبات الكنيسة ورهبانها . فقال علاء الدين : يحسن أن ترجميني إلى الملك ليقبّلني ، فقالت : احذر أن تُقصر في خدمة الكنيسة

فهي حاميةٌ لك من القتل ، وقد رأيتُ ما فعلَ الملكُ بالأسرى من المسلمين .
ثم قالت : يا مجنون ؛ ما أتيتُ بكَ إلى الكنيسةِ لتخدمَ أو لتمكنَ خُذ
هذا القضيْبَ النحاسيَّ ، ذا الصليبِ في رأسه ، واخرُجْ إلى الشارعِ ،
واعطِبْ إلى خدمةِ الكنيسةِ من قِابلِكَ ، عطيما كان أو غيرَ عظيمٍ ، ثم
احضُرْ معه ، وكلفه أن يقومَ بالأعمالِ التي سَمِعَها من كنس وطَبَّخٍ
وغيرهما .

قال علاء الدين : فما زلتُ على هذه الحالِ مدةً من الزمانِ ، وذاتَ
يومٍ قالت له العجوز : لا تَبِتْ في الكنيسةِ هذه الليلةَ ، فقال : ولمَ ذلك ؟
فقالت : إن مَريمَ بنتَ الملكِ يوحنا ملكَ هذه المدينة ستزورها الليلةَ ،
ولا ينبغي أن تكونَ في الكنيسةِ وقتَ زيارتها ، فقال : سمعاً وطاعةً ،
ولكنه أَسْرٌ في نفسه أن يَحْتَفِيَ في مكانٍ منها بحيث يرى مَريمَ ولا
يَراه أحدٌ .

ولما حضرتْ مَريمُ كان في صَحبِها صبيَّةٌ تقول لها : آتَسَتْ
الكنيسةَ يا زُبيدة ، فحَدَّقَ علاء الدين في زُبيدة هذه فوجدها زوجةَ
التي ماتتْ على أثرِ صرخةٍ عاليةٍ في بغداد ؛ ثم قالت لها : يا زُبيدة ، غَنَّى
لنا بعضاً من الوقتِ بصوتِكَ الجليلِ ، فقالت : إن أغنيتني حتى تَنِي لي بما
وعَدَني به ، فقالت : وما هو ؟ فقالت : وعَدَني أن تَجَمِّعَني بزوجي
علاء الدين أبي الشامات ، فقالت مَريمُ : قومي غَنِّي ، فإن زوجَكَ هنا في
الكنيسةِ ، وِسمَعنا الآن ونُحْنُ نَتَكَلَّمُ ؛ وما بدأتِ زُبيدة تَغَنِّي حتى هَجَمَ

عليها علاء الدين وضَمَّها إلى صدره ، فَوَقَعَا من فِرْطِ سرورها مَغْشِيَا عليهما ،
فَرَشَتْهُمَا مَرْيَمُ بِمَاءِ الْوَرْدِ حَتَّى أَفَاقَا ، وَقَالَتْ لهُمَا : أَهْنُتُكُمَا بِمَجْمَعِ شَمْلِكُمَا ،
فَقَالَ علاء الدين : اجْتَمَعْنَا عَلَى عَجَبَتِكَ وَالسُّرُورِ بَلُقيَانَا وَلُقيَاكِ ، ثُمَّ التَفَتَ
إِلَى زُيْدَةَ وَقَالَ : أَنْتِ كُنْتِ قَدُمْتُ وَدَفَنْتُكِ ، فَكَيْفَ حَيَاتِ وَجِئْتِ
إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ؟ فَقَالَتْ : لَسْتُ أَنَا الَّتِي مَاتَتْ ، وَلَكِنْ اخْتَلَفَنِي جَانٌّ وَطَارَ
بِنِي إِلَى هَذِهِ الْكَنِيسَةِ ، وَالَّتِي مَاتَتْ وَدَفَنْتُهَا جَنِّيَّةٌ تَمَازَوْتِ حَتَّى دُفِنَتْ
ثُمَّ نَبَشَتِ قَبْرَهَا وَخَرَجَتْ .

قَالَ علاء الدين لِمَرْيَمَ : وَلَايَ شَيْءٍ فَعَلْتِ بِنِي وَبِزَوْجِي هَذَا وَجِئْتِ بِنَا
إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ؟ فَالْتَفَتَتْ إِلَى زُيْدَةَ وَقَالَتْ : أَلَمْ أَخْبِرْكِ أَنِّي مُوَعِدَةٌ بِزَوَاجِي
مِنْ علاء الدين ، وَوَعَدْتُكِ أَنِّي سَأَجْعَلُكِ بِهِ ، وَرَضِيتُ أَنْ أَكُونَ لَكَ
ضَرَّةً ، لِي لَيْلَةً ، وَلَكَ لَيْلَةً ؟ فَقَالَتْ زُيْدَةُ : بَلَى ، وَتَعْنِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ
سَرِيماً حَتَّى أَرَى زَوْجِي ؟ ثُمَّ التَفَتَتْ مَرْيَمُ إِلَى علاء الدين وَقَالَتْ : هَلْ تَقْبَلُ
أَنْ أَكُونَ زَوْجَةً لَكَ ؟ فَقَالَ : وَلَكِنَّكِ غَيْرُ مُسْلِمَةٍ ، وَلَسْتُ كِتَابِيَّةً ،
فَقَالَتْ : حَاشَى لِلَّهِ أَنْ أَكُونَ غَيْرَ مُسْلِمَةٍ ، إِنِّي مُؤْمِنَةٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْذُ ثَمَانِيَةِ عَشَرَ حَامًا ، فَقَالَ : وَلَكِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَرْجِعَ
إِلَى بِلَادِي ، فَقَالَتْ : اسْمَعْ مِنِّي مَا أَقُولُ : أَهْنُتُكِ يَا علاء الدين بِوَلَدٍ لَكَ فِي
بَغْدَادٍ يُسَمَّى وَحِيدًا ، وَهُوَ الْآنَ فِي دِيْوَانِ الْخَلِيفَةِ ، وَفِي وَظِيفَتِكَ الَّتِي
كُنْتَ فِيهَا ، وَقَدْ ظَهَرَ سَارِقُ أَشْيَاءِ الْخَلِيفَةِ ، وَهُوَ أَحْمَدُ قَسَاقِمَ ، وَطُرِحَ
فِي السَّجَنِ يُقَاسَى أَلْوَانَ الْعَذَابِ ؛ وَاعْلَمْ أَنِّي أَنَا الَّتِي وَضَعْتُ الْخُرْزَةَ فِي



وكانك ، وكلفتُ القنصلَ أن يحضرَكَ وإياها ، لأنه مشغوفٌ بحبِّي ،
 وجعلتُ ثمنَ زواجي منه أن يحبني ، بك إلينا ، حتى تلتقي بزواجك زيدة ،
 وأنا التي أرسلتُ العجوزَ إلى الملكِ لتُخلِّصَكَ من القتل ؛ فقال : جزاكِ
 الله كل خير ، وما فائدةُ هذه الخُرزة ؟ فقالت : هذه الخُرزةُ من كنزِ
 مرصود ، ولها زايا ومنافع ستُعرفُها بعد ؛ وقمتُ في يدِ جدتي لأبي ،
 وكانت ساحرةٌ تقرأ الرموزَ السحرية ، وقد وهبتُ لي هذه الخُرزة ،
 وعرفتني منافعها ، وقد سألتُ أبي عن طالبي فقالت له : ستَموتُ قتيلاً ،
 والذي يقتلكُ أسيرٌ من مدينة الإسكندرية ؛ فحلفَ أبي أن يقتلَ كلَّ
 أسيرٍ يحبني منها ، وقتلَ في سبيل ذلك عدَدَ شعُرِ رأسه الأصمغ ؛ وقد
 سألتُ جدتي عن طالبي أيضاً فقالت : لا يتزوجك أحدٌ إلا علاء الدين
 أبا الشامات ، فمُجِبتُ لذلك ، وسكتَ صابرةً حتى آنَ الأوان ؛ فتزوجها
 علاء الدين ، وطلبَ إليها أن تذهبَ به وبزوجه إلى بلاده ، فقالت :
 ما دمتُ تريدُ ذلك ففعلَ معي ، وأجلستهُ في حجرةٍ وأقفلتها ، ثم دخلتُ
 على أبيها ، فلما رآها دعاها إلى أن تجلسَ بجوارِهِ ، لأنه يشمُّ بضيقٍ في
 صدره ، ثم شربَ وسكرٍ ؛ وكانت مريمٌ قد وضعتُ بنجاً في قدحٍ من
 الأوداج التي شربتها ، فأغشى عليه ، وتركتهُ مستلقياً على قفاه ، ثم أحضرتُ
 علاء الدين وقالت : هذا خصمك في غيوبته فافعلْ به ما تشاء ، فأوثق
 علاء الدين كتافه ، ثم أيقظتهُ ابنته ، فقال : هل يصحُّ أن تفعلِ هذا
 بأبيك ؟ فقالت : لا نزالُ نحترمك ، فإن آمنتَ وأسأمتَ آمِنتَ وسلِمتَ ،

وَأَلَّا فَقَدْ حَقَّ عَلَيْكَ الْقَتْلُ ، وَمَا ظَلَمْنَاكَ وَلَا عَقَقْنَاكَ ؛ وَلَمَّا أَبَى أَنْ يُسَلِّمَ
ذُبْحُهُ عَلَاءَ الدِّينِ بِخَنْجَرِهِ ، وَكَتَبَ كُلَّ هَذَا فِي وَرْقَةٍ تَرَكَهَا بِجَانِبِهِ ؛ وَجَمَعَتْ
مَرْيَمُ وَزَيْدَةَ وَعَلَاءَ الدِّينِ مَا شَاءُوا مِنَ الْأَمْوَالِ ، ثُمَّ حَكَّتْ مَرْيَمُ جَانِبَ
الْخُرْزَةِ الَّتِي بِهِ صُورَةُ سَرِيرٍ ، فَخَضَرُ أَمَامَهُمْ سَرِيرٌ جَلَسُوا عَلَيْهِ ، وَطَارَ بِهِمْ
إِلَى وَادٍ بَعِيدٍ لَا نَبَاتَ فِيهِ وَلَا مَاءَ ، وَحَكَّتْ مَرْيَمُ جَانِبًا آخَرَ مِنَ الْخُرْزَةِ
وَقَالَتْ : لِيَنْتَصِبَ هُنَا صَوَانٌ نَسْكُنُ فِيهِ ، فَكَانَ الصَّوَانُ كَمَا أَرَادَتْ ،
ثُمَّ حَكَّتْ جَانِبَيْنِ مِنْ جَوَانِبِ الْخُرْزَةِ وَقَالَتْ : بِحَقِّ مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ
وَالسَّمَاءَ ، أَوْجِدْ لَنَا يَا رَبِّ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ أَشْجَارًا وَنَبَاتًا وَأَنْهَارًا ،
وَمَائِدَةً نَأْكُلُ مِنْهَا حَتَّى نَشْبِعَ ، فَكَانَ مَا طَلَبَتْ ، وَتَوَضَّأُوا وَصَلُّوا ،
وَأَكَلُوا وَشَرَبُوا ، وَأَقَامُوا فِي هَذَا الْمَكَانِ يَسْتَرِيحُونَ .

دَخَلَ ابْنُ الْمَلِكِ عَلَى أَبِيهِ فَوَجَدَهُ مَذْبُوحًا قَتِيلًا ، وَوَجَدَ بِجَانِبِهِ وَرْقَةً
فَأَخَذَهَا وَقَرَأَ مَا فِيهَا ، وَعَرَفَ مِنْهَا مَا حَصَلَ ، فَجَعَلَ يَبْحَثُ عَنْ أُخْتِهِ
مَرْيَمَ فَلَمْ يَجِدْهَا ، وَسَأَلَ الْعَجُوزَ عَنْهَا فَقَالَتْ : مَا رَأَيْتُهَا ، فَنَادَى عَسْكَرَهُ
وَجَمَعَ جُنُودَهُ ، وَخَرَجَ بِهِمْ سَائِرًا فِي الْفُضَاءِ ، حَتَّى رَأَوْا عَلَاءَ الدِّينِ
وَزَوْجَتَيْهِ فِي صَوَانِهِمْ ، فَنَادَى مِنْ قَرِيبٍ سُرُورَهُ بِلِقَائِهِمْ لِيَنْتَقِمَ مِنْهُمْ :
نَحْنُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلَسْتُمْ مِنْ سُيُوفِنَا بَنَاجِينَ ، فَفَقَلَ الرِّيحُ هَذَا التَّدَاءَ
إِلَى أُخْتِهِ مَرْيَمَ ، فَسَأَلَتْ عَلَاءَ الدِّينِ عَنْ مَبْلَغِ فِرَوسِيَّتِهِ وَلِقَائِهِ الْأَعْدَاءِ ،
فَقَالَ : لَا أَعْرِفُ شَيْئًا ، فَحَكَّتْ يَابِهَامَهَا مَكَانًا بِالْخُرْزَةِ بِهِ صُورَةُ فَارَسَ ،
وَإِذَا بِفَارَسٍ بَيْنَ يَدَيْهَا ، لَا يَحِرُّوْا إِنْسَانٌ أَنْ يَلْتَقِيَ بِهِ فِي قِتَالٍ ، فَهَجَمَ عَلَى

جيش أخيهما ، وجعل يضرب فيهم بسيفه حتى ولّوا مهزومين ، ثم ركبوا سريرهم وذهبوا إلى الإسكندرية ، كما أراد علاء الدين ، ونزلوا بالمكان والمخزن ؛ وفي ذلك الحين قدم عليهم أحمد الدنف من بغداد ، وجلس يبشره بولده وحيد ، الذي بلغ عشرين سنة ، ويقوم بعمل أبيه في وظيفته ، وحكى لهم جميع ما جرى ، وحكى علاء الدين إليه أيضاً ما وقع له ، حتى رجّع مع زوجته إلى الإسكندرية ؛ ثم قال أحمد الدنف : إن الخليفة يطلبك يا علاء الدين ، ويجب أن يلقاك ، فقال : لا بأس في ذلك ، ولكنى أحب أن أزور أبي وأُمِّي في مِصر ، ثم نُسافر جميعنا إلى الخليفة في بغداد .

وركبوا جميعهم السرير ، وطار بهم إلى مِصر في الدرب الأحمر ، فاجتمع بأهلهم ، وفرحوا جميعهم باللقاء بعد طول الغيبة .

وبعد ثلاثة أيام عرض علاء الدين على أبيه وأُمّه أن يرحلَا معه إلى بغداد ، فرضيا بذلك ، وسافروا جميعهم ؛ وهناك نزل علاء الدين وزوجته وأبوه وأُمّه في بيته ؛ ثم ذهب أحمد الدنف إلى الخليفة ، وأخبره بقدم علاء الدين ، وجميع ما حدث له ، ففرح فرحاً عظيماً ، وأحضره بين يديه ، وأمر أن يحضروا أحمد قائم من سجنه ، فلما حضر في قيده ، قال الخليفة لعلاء الدين : قم واقتص منه كما تشاء ، فقام إليه وفصل رأسه عن جسده وقال : ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون . . . ثم منح الخليفة علاء الدين وأهلهم منحة قيمتها وعاشوا في أرغدٍ عيش حتى جاء أجلهم ، وانتقلوا إلى رحمة ربهم .



الصَّيَّادُ وَالْعَفْرِيتُ

كان في قديم الزمان صيَّادٌ بلغَ مِنَ العُمُرِ أَرْدَلَهُ ، وله أولاد ثلاثة وزوجة ، وهو يَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ وَقُوَّةَ عِيَالِهِ مِنْ شَبَكَتِهِ ، وكانت لا تَعْدُهُ إِلَّا بالكفاف ، إذ قَدِرَ عليه رزقُهُ ، ولم يَكْتَسِبْ لَهُ النِّعَى والثراء .

ذهبَ يوماً إلى شاطئِ البحرِ في وقت الظهيرة ، وكان من عادته ألا يلقى شَبَكَتَهُ في البحرِ إلا أربعَ مرات ، ثم يتناول منها ما تجودُ به ، قليلاً كان أو كثيراً ، ولما ابتلع الماء شَبَكَتَهُ أولَ مرة ، وجذبها إليه ، وجدها ثقيلة لا تُطَاوَعُهُ ، فربطَ حَبْلُهَا الذي يُمَسِّكُهَا في وَتَدٍ مُثَبَّتٍ في الشاطئِ ، وخلعَ ملبأَسَهُ ، وغطَّسَ في الماء ، وجعلَ يماحُجُ المخرجَ بها ، حتى ألتأها على الشاطئِ ، تحملُ في جوفِها حماراً مَيِّتاً ، فأصابه غمٌ عظيمٌ ، وأخذَ يَحْوَقلُ وَيَسْتَرْجِعُ ، ولكنَّ الأملَ في رِزْقِهِ ، لا يزالُ يساورُهُ ،

ولما استراح قليلا خلع الشبكة من حمارها ، ورمها في البحر مرة ثانية ، ثم جذبها فاستعصت عليه أشد مما كانت في الرمية الأولى ، فنزل وأخرجها ، فألقاها قد انتقمت حُبًّا كبيرا ، به كثير من الرمل والطين ، فابتأس وحزن ، وقال : يا حرقلة الدهر كُفِّ أَوْعِي ، وتضرع إلى الله أن يُيسِّرَ له ما قَدَّرَه ، من رزقٍ قليل أو كثير . ثم ألقى ما علق بالشبكة وعصرها ، ورمها مرة ثالثة ، ثم جرَّها إليه فطاوئته ، ولسكنه لم يجد فيها إلا قليلا من حجارةٍ وعِصَى ، فهز رأسه هزّة عجب وأسى ، ثم رفع رأسه إلى السماء قائلاً :

اللهم إنك تعلم أني لا أزيّ شبكتي في البحر إلا أربما ، وقد رميتها ثلاثا ، لم أرزق فيها بزاد لعمالي ، الذين يرتقبون أوتيتي ، ارتقاب السارى ضوء القمر ، اللهم إنك أرحم بهم مني ، ويبيدك الخير ، وأنت على كل شيء قدير .

ثم طرح الشبكة مرة رابعة ، وصبر حتى استقرت ، ثم أخرجها فوجد فيها قمحا من نحاسٍ أصفر محتوماً بجنايم سليمان عليه السلام ، ففرح به ، إذ قدر ثمنه في نفسه عشرة دنانير ، ولكنه أصر على فتحه ، لعله يجد فيه قطعا من ذهبٍ تكون منبغ غناؤه ، فجعل يعالج كشف غطاءه المثبت بالرصاص حتى انفرج عنه ، وإذا بدخانٍ يُمور ويصاعد في السماء ، وينتشر ذات اليمين وذات الشمال حتى ملأ الدنيا أمامه .

وما كاد العجبُ يعلأ جوانب نفسه ، حتى تحول الدخان إلى مارد

من الجنّ رأسه في السماء ، على مدّة البصر ، ورجلاه في الأرض كأنهما ساريتان ، فقفّ شعرُ رأسه ، وجفّ ريقه في فيه ، وارتعدت فرائضه ، ودارت من الخوف عيناؤه في رأسه . ثم انحى العفريت عليه قائلاً :
لا إلهَ إلا الله ، سليمانُ نبيُّ الله ، لا تقتلني أيها النبيُّ الصادق ،
فلن تراني أعصى لك أمراً .

فاستجمع الصيادُ قواه وقال :

ماذا تقولُ أيها الماردُ ؟ إن سليمانَ مضى على موته ألفٌ وثمانمائة سنة ، ونحنُ الآن في غيرِ زمنه ، وندينُ بدينٍ غيرِ دينه ، ونؤمنُ بخاتمِ الأنبياء من بعده ، فما شأنُك ؟ وكيف أقمتَ في هذا القمقم ذلكَ الزمنَ الطويلَ الغابر ؟

فقال المارد في أنمة المطمئن الفرح ، والقويّ المنتصر :

جاءتك البشريّ يا صياد ، ففرح وقال :

لعلّك تحمِلُ إلى سعادة الغنى والبسطة في الرزق .

فقال المارد : أحملُ إليك صنوفاً من الموت والفناء لتختارَ منها

ما تشاء .

فقال الصياد : وهذا جزاء إحسانِي إليك ، وإِطلاقِكَ من السجنِ

الذي كنتَ فيه ؟ !!

فقال المارد : لا شيءَ عِنْدِي لك غيرَ ما سمِعتَ ، فاحترقْ لنفسك الميئةَ

التي تراها ، فإنّي معجلٌ بها الساعة .



فقال : أليس من الحق أن أعرفَ خطيئَةَ اقترَفَها ، حتى أَسْتَعِثَّ
الموتَ من أجلها ؟

فقال المارد : لا أعرفُ لك خطيئَةَ أو إثمًا ، ولكنَّه القدرُ يُعْثِقُ
المُحْسِنِينَ ، وَيَبْتَلِي الْمُؤْمِنِينَ ، لحِكمةٍ لا نَدْرِهَا في كثيرٍ من الأَحْيَانِ .
فقال الصياد : إنَّ الابتلاءَ الذي خَفِيتُ حِكْمَتَهُ يكونُ مَصْحُوبًا بِمِلَّةٍ
ظاهرةٍ باديةٍ ، كأنَّ يخوضَ المرءُ البحرَ مُبْتَغِيًا رِزْقَ الصَّغَارِ من أبنائه ،
فيُفِرَّقَ ويموتُ ، أما الابتلاءُ بالموتِ وَحِرْمَانِ صِغَارِ الأولادِ من مَائِلِهِمْ
وَكافِلِهِمْ فحِكمَتُهُ خَفِيَّةٌ ، وأما عِلَّةُ الموتِ الظاهرةُ التي صاحَبَتْ هذا
الابتلاءَ فَإِنَّهَا باديةٌ في أَنَّهُ غَشِيَ موطنَ الخطرِ ، وإنَّ حَالِي مَعَكَ غَيْرُ هذا ،
فَلِمَ يَكُنْ مَعِيَ إِلَّا أَنِّي أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ ، وَأَنَا في مَنَآئٍ عَنِ خَطَرٍ
يَحْبِقُ بِي .

فقال الماردُ : العِلَّةُ واضِحَةٌ ، وسَتَعَلَّمُهَا مِمَّا أَقْصَى عَلَيْكَ .

فقال الصيادُ . قلْ ما بَدَأَ لَكَ ، والأمرُ لله الذي خَلَقَنِي وَخَلَقَكَ .

فقال الماردُ : أَنَا صَخْرُ الْجَنَّةِ ، عَصَيْتُ سُلَيْمَانَ وَغَوَيْتُ ، وَكَفَرْتُ
بِهِ وَاسْتَكْبَرْتُ ، فَفَادَنِي إِلَيْهِ وَزِيرُهُ آصَفُ بْنُ بَرْخِيَا ، وَدَعَانِي إِلَى الْإِيمَانِ
بِهِ وَطَاعَتِهِ ، فَأَصْرَزْتُ عَلَى كُفْرِي وَعِصْيَانِي ، فَبَسَنِي فِي هَذَا الْقُعْمِ ، حَتَّى
يَحْبِسَ عَنِ النَّاسِ بِلَائِي وَشَرِّي ، ثُمَّ أَوْثَقَ غِطَاءَهُ ، وَطَبَعَهُ بِخَاتَمِهِ ، وَرَمَى
الْقُعْمَ بِي فِي قَاعِ الْبَحْرِ ، فَكُنْتُ فِيهِ أَعْوَامًا وَأَعْوَامًا ، لَا أَجِدُ فِيهَا
حِيلَةً أَفْلِتُ بِهَا مِنْ سَجْنِي ، فَمَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ أُغْنِيَ إِلَى الْأَبَدِ مِنْ

يُنَجِّينِي ، ولبثتُ على هذا العزمِ مِثْلَ من الأعوامِ ، فما وجدتُ إلى النجاةِ سبيلا ، فَقَدْ قُلْتُ في نَفْسِي : إِنْ مَنْ أَنْجَانِي فَتَحْتُ لَهُ كَنْوَزَ الْأَرْضِ ، وقضيتُ له كُلَّ مَا يُرِيدُ ، وارتقتُ أَرْبَعًا مِائَةَ حَامٍ ، فأنجاني أحدٌ ، فثارت ثورةُ الغضبِ في نَفْسِي وقلت : مَنْ فَتَحَ السَّاعَةَ بَابَ سَجْنِي هَذَا فَتَحْتُ لَهُ أَبْوَابَ الْمَوْتِ ، يَخْتَارُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ ، وهأنتَ ذا قد فتحتَ بَابَ الْقَمْعِ ، فاختَرِ لِنَفْسِكَ كَيْفَ تَمُوتُ ؟

فقال الصياد : وَلَكِنَّ الْمَرْءَ يُحْزَى بِنَيْتِهِ ، لَا بِنَيْتِهِ غَيْرِهِ ، وَأَنْتَ الَّذِي نَوَيْتَ أَنْ تَقْتُلَنِي ، فَكَيْفَ تَلْزِمُنِي نَيْتَكَ ، وَمَا قَدِمْتُ لَكَ إِلَّا الْخَيْرَ وَالنَّجَاةَ ؟

فقال المارد : مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٌّ ، وَيُظْهَرُ أَنَّ الْإِنْسَانَ طَبَعَ عَلَى الْعَمَلِ رَهْبًا ، أَكْثَرَ مِمَّا طَبَعَ عَلَى الْعَمَلِ رَغْبًا ، فَسَافَكَ الطَّبَعُ الْعَامُّ أَوْ الْجَدُّ الْعَاثِرُ إِلَى أَنْ تَخْلَصَنِي وَأَنَا أَنْذِرُ ، وَلَمْ تَخْلَصْنِي وَأَنَا أَبْشُرُ ، وَذَلِكَ مَا كُتِبَ عَلَيْكَ ، وَقُدِّرَ لَكَ .

فقال الصياد : إِنْ مَعَ الْمُسْرِ يُسْرًا ، وَمَعَ الضِّيقِ فَرَجًا ، وَمَعَ الْعُقُوبَةِ عَفْوًا ، فَإِذَا شَفَعْتَ يَدِي عِنْدَكَ بِتَنْجِيَّتِكَ ، عَفَوْتَ عَنِّي ، وَخَلَيْتَ سَبِيلِي ، إِلَى أَوْلَادِي ، الَّذِينَ لَا كَافِلَ لَهُمْ غَيْرِي !

فقال الماردُ : ذَلِكَ مَا لَا يَكُونُ ، وَمَاتَرَكْ لَكَ فُرْصَةَ التَّفَكُّيرِ فِي اخْتِيَارِ مَا تَشَاءُ مِنْ أَلْوَانِ الْمَوْتِ الْمُخْتَوِمِ .

فقال الصيادُ في نَفْسِهِ : لَقَدْ قَالَ الْأَوَّلُ : اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ ،

وليس لي الآن إلا أن أحتال لنجاتي ، ولو كانت بهلاك هذا المارد الذي كفر بنعمة ربه ، ثم قال للمفريت : بالاسم الأعظم المنقوش على خاتم سليمان أن تصدقني فيما أسألك عنه ، فاضطرب المفريت لهذا القسم وقال : قل ما شئت فإني محييكَ عما تسأل .

فقال الصياد : لا أكاذُ صدقُ أنك كنت في هذا القمم على صغره وضيقة ، وعظم جسمك وضخامته ، ولا بد أن تكون من مرردة هذا المكان ، وتنتحل اللل لقتلي .

فقال المارد : وكيف تصدق أني كنت فيه ؟

فقال : أن أراك بعيني رأسي داخله ، وبعد ذلك تكون في حل من قتلي ، أو العفو عني .

فقال المارد لك ذلك ، ثم انتفض فصار دُخاناً يتسرب داخل القمم ، وما كاد يدخله ، حتى أطبق الصياد عليه غطاءه ، وأحكم وضعه وثبتيته ، ثم ناداه : أيها المارد الكافر بنعمة مولاه ، لقد أوقعك كفرُك بالنعمة ، في ذلك السجن الذي لا تبرحه ، حتى قيام الساعة ، وسأذيع خبرك ، وأحذر الصيادين من قمعك حتى تلبث فيه أبداً لا يدين ، فندم المفريت وتضرع إلى الصياد قائلاً : أحسن إلي بالإفراج عني أحسن إليك .

فقال الصياد : إن أحسنت إليك لقيت منك ما لقيته الحكيم دوبان من الملك يونان ، فقال المارد : وكيف كان ذلك ؟ فقال الصياد :

كان في المصور الخالية ملكٌ بمدينة في الفرس يُدعى « يونان » ،

أصابه برص شوه خلقه ، وعكّر هناءته ، وطامن من كبريائه وعزّته ، ولم يُجد ما أنفقه من مال ، ومن أحضرهم من الأطباء والحكماء في شفائه شيئاً ، حتى استنّاس وظنّ أنه لن يقدر على إبرائه من هذا المرض أحد .

وكان قد وفّد إلى تلك المدينة حكيم عمر طويلا ، وحذّق الطبّ والحكمة ، ومهر في معرفة خواص النبات ، وماله من نفع وضرر ، ولما علّم مرض الملك « يونان » وعجز الأطباء والحكماء عن شفائه منه ، لبس أفخر ما عنده ، وذهب إليه في مجلسه ، فقبل الأرض بين يديه ، وجلس بعد أن أذن له ، فعرف الملك بنفسه ، ثم قال : لقد عزّ على وأنت قلب شعبك النابض ، أن يحزنك مرضك ، وتأس من علاجه ، فجنّت إليك مدفوما بما أحمله لك من ولاد وحبّة ، لأبرئك منه ، دون أن تُسقى دواء ، أو يمسّ جسمك مرهم ، فاستبشر الملك وقال : ولئن فعلت هذا فلك عندي كل ما تتمنى ، وكنت مني بمنزلة نفسي ، وكان لك فضل على الأيام لا ينسى ، فقال الحكيم « دويان » ذلك واجب علينا أداؤه ، وإن فنيّت أنفسنا في سبيله ، ثم استأذن الملك أن يقوم لإنجازه ، فأذن له ، وأغدق عليه كثيراً من ماله ، ووكل به جنّداً تحفّ به إلى داره ، وهناك عمل صولجانا وكرّة ، وجعل في مقبض الصولجان ماشاء من الأدوية ، بحيث تتسرّب إلى جسم من يُمسكه ، ثم ذهب إلى الملك فوجده جالسا على عرش عظيم ، في بهو فسيح ، فرشت أرضه بالطنافس الوريّة ، وقد جلس أمامه الوزراء والحاشية ، في استدارة الهلال وتألقه ،

فَقَبِلَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَجْلَسَهُ الْمَلِكُ عَنْ يَمِينِهِ ، وَبَالَغَ فِي الْحَفَاوَةِ بِهِ ، ثُمَّ قَالَ الْحَكِيمُ دُوبَانُ لِلْمَلِكِ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ الْحَاضِرِينَ بِهِ : هَذِهِ كُرَةٌ ، وَهَذَا صَوْلْجَانُ ، أَعَدَدْتُهُمَا لِلتَّلْعَبِ بِهِمَا فِي مَكَانٍ فَيَسِيحُ ، مَعَ الْكَدِّ وَالْإِجْهَادِ ، حَتَّى يَمِزِقَ كَفُوكَ ، فَيَسْرِى الدَّوَاهُ مِنْ مَقْبِضِ الصَّوْلْجَانِ إِلَى جِسْمِكَ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَذْهَبُ إِلَى الْحَمَامِ فَتَسْتَحِمُ ، ثُمَّ تَذْهَبُ إِلَى سَرِيرِكَ لِتَنَامَ وَتَأْخُذَ رَاحَتَكَ ، وَسَتَهَبُ مِنْ نَوْمِكَ ، وَقَدْ بَرَأْتَ بِمَوْنِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ الْحَكِيمُ أَنْ يَنْصَرِفَ إِلَى دَارِهِ ، فَأُذِنَ لَهُ .

وَتَقَدَّ الْمَلِكُ مَا أَشَارَ بِهِ الْحَكِيمُ دُوبَانُ ، فَلَمَّا أَشْرَقَ الصَّبَاحُ وَهَبَ مِنْ نَوْمِهِ ، لَمْ يَجِدْ أَثَرًا لِلْبَرَصِ فِي جِسْمِهِ ، فَاجْتَبَطَ الْمَلِكُ وَأَشْرَقَ قَصْرُهُ بِنُورِ الْإِنْشِرَاحِ وَالْبَهْجَةِ ، وَذَاعَ ذَلِكَ النَّبَأُ فِي الْمَدِينَةِ ، فَخَفَقَتِ أَعْلَامُ السُّرُورِ عَلَى الدُّورِ ، وَمَاجَ الشَّعْبُ فَرِحًا بِشِفَاءِ الْمَلِكِ .

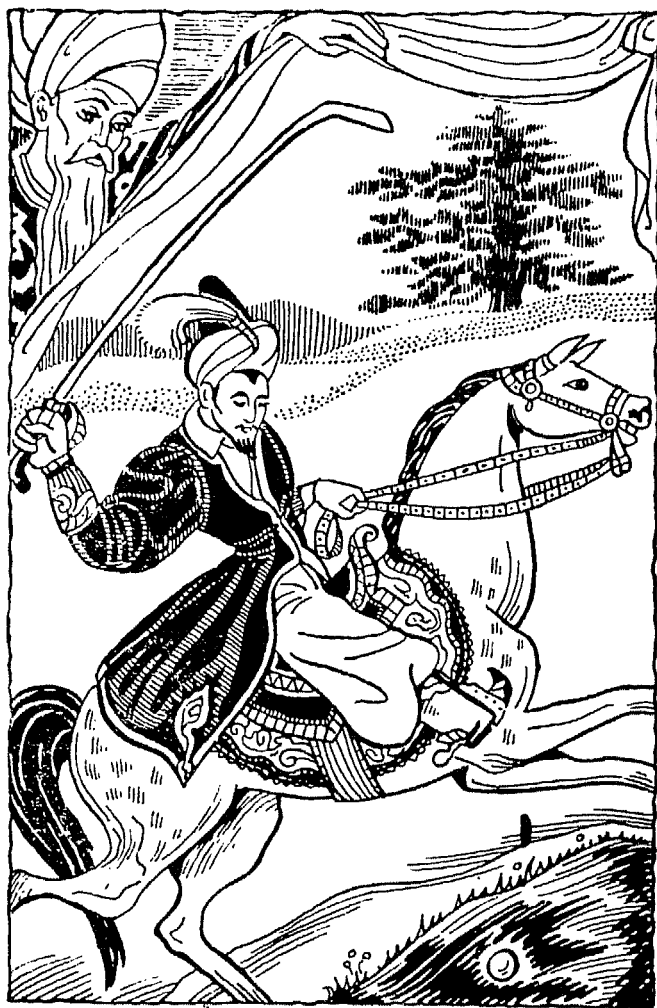
ثُمَّ دَعَا الْمَلِكُ الْحَكِيمَ دُوبَانُ فَأَجْلَسَهُ بِجَوَارِهِ ، عَلَى مَشْهَدٍ مِنْ وَزَرَاتِهِ ، وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ ، وَأَذْنَى إِلَيْهِ مَنَزَلَتَهُ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ مَالَهُ وَنِعَمَهُ ، وَجَمَلَهُ أَوَّلَ الْمُقَرَّبِينَ لَدَيْهِ .

فَارْتَزَوَةُ الْحَسَدِ فِي نَفْسِ أَقْبَحِ الْوُزَرَاءِ شَكَلًا ، وَالْأَمَمِ طَبَعًا ، وَأَخْبَثِهِمْ نَزْعَةً ، وَأَشْدَمَ حِقْدًا وَسَخِيمَةً ، فَوَسَّوْسَ إِلَى الْمَلِكِ وَقَالَ : الْعَاقِلُ مَنْ نَظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ ، وَعَمِلَ لَهَا حَتَّى يَأْمَنَ شَرَّهَا ، وَمَنْ خَدَعَتْهُ ظَوَاهِرُ الْأُمُورِ جَهْلَ بَوَاطِنِهَا ، وَحَاقَ بِهِ خَطَرُهَا ، وَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ مِنَ الْحَكِيمِ دُوبَانِ ، الَّذِي قَرَّبْتَهُ ، وَرَكَنْتَ إِلَى الثَّقَةِ بِهِ ، وَلَا إِخَالَه إِلَّا

عَدُوًّا فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ ، فَقَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ دَفَعْتَ الْحَسَدُ إِلَى أَنْ قُلْتَ فِي الْحَكِيمِ دُوبَانَ مَا قُلْتَ ، وَمَا عَهْدُ نَاهٍ إِلَّا أَخًا مُخْلِصًا ، وَحَكِيمًا مَاهِرًا ، قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ نَظِيرٌ فِي الدُّنْيَا ، وَقَدْ أَبْرَأَنِي مِنَ الْمَرَضِ ، دُونَ أَنْ أُسْقَى دَوَاءً ، وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا مِنْ قَبْلِ ، فَقَالَ الْوَزِيرُ : ذَلِكَ مَوْطِنُ الْخَطَرِ ، فَإِنَّ الَّذِي يَشْفِيكَ دُونَ دَوَاءٍ تَتَنَاوَلُهُ ، بِسُطُوعِ أَنْ يَقْتُلَكَ بِشَيْءٍ تَشْتَهِيهِ ، أَوْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَلَا إِخَالَه إِلَّا جَاسُوسًا جَاءَ نَا لِيَقْضِيَ حَاجَةً فِي نَفْسِ أُمْتِهِ وَمَلِكِهِ ، وَأَخُوفَ مَا أَخَافُ مِنْهُ ، أَنْ يَنَالَ حَيَاتَكَ بِمَكْرِهِ أَوْ أَذَى ، فَلَوْ قَتَلْتَهُ ، لَا سَتَرْنَا مِنْ خَطَرِهِ ، فَقَالَ الْمَلِكُ : لَوْ مُنَحْتُهِ نِصْفَ مَلِكِي لَكَانَ قَلِيلًا بِجَانِبِ مَا قَدَّمْتُهُ لِي مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَلَوْ قَتَلْتُهُ لَنَدِمْتُ كَمَا نَدِمَ السَّنْدُبَادُ عَلَى قَتْلِهِ الْبَازِي ، فَقَالَ الْوَزِيرُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ الْمَلِكُ يُونَانَ : كَانَ فِي سَالَفِ الْأَزْمَانِ أَحَدُ مُلُوكِ الْفَرَسِ ، وَكَانَ مُغْرَمًا بِالصَّيْدِ وَالْقَنَصِ ، وَلَهُ بَازٍ رَبَّاهُ عَلَى عَيْنِهِ ، وَاصْطَنَعَهُ لِنَفْسِهِ ، يَصْحُبُهُ فِي خُرُوجِهِ لِلصَّيْدِ ، فَيُعِينُهُ عَلَى اقْتِنَاصِ مَا أَصَابَهُ ، مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ ، وَقَدْ أَلْفَ كُلُّهُمَا مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، فَأَحْبَبَهُ الْمَلِكُ ، وَأَحْبَبَهُ بَازُهُ .

وَذَاتَ يَوْمٍ خَرَجَ الْمَلِكُ فِي ثُلَّةٍ مِنْ عَسَاكِرِ الصَّيْدِ إِلَى الْبَرِيَّةِ ، فَجَسُّوا بَيْنَهُمْ غَزَالًا يَعْجِبُ النَّاظِرِينَ ، فَنَادَى فِيهِمُ الْمَلِكُ : أَنْ احْذَرُوا أَنْ يُفْلَتَ الْغَزَالُ مِنْ بَيْنِكُمْ ، وَمَنْ فَرَّ الْغَزَالُ مِنْ نَاحِيَتِهِ قَتَلْتُهُ ، وَأَنَا فِي هَذَا مَعَكُمْ ، وَعَبَثًا حَاوَلَ الْغَزَالُ أَنْ يَهْرَبَ مِنْ نَاحِيَةِ الْعَسْكَرِ ، إِذْ كَانُوا عَلَى يَقِظَةٍ وَحَذَرٍ ، فَتَفَقَّلَ الْغَزَالُ الْمَلِكَ وَفَرَّ مِنْ نَاحِيَتِهِ ، وَانْطَلَقَ

مع الريح في البرية ، وعَزَّ على الملكِ أن يكونَ أضعفَ من عسكرِه ،
أو مُقصرًا في واجبِ مفروضِ أمامهم ، فركبَ جَوَادَه ، وأرْخى عَنَانَه ،
وطارَ به من خلفه ، والبازُ طائرٌ من فوقه . وأسرعَ البازُ ولحقَ بالنزال ،
وجعلَ يضربُ عَيْنَيْه بأجنحتِه ، فمَوَّقَه عن الجريِ السريعِ والهربِ ،
وَأَمْسَكَه الملكُ وذبحه ، وأخذَه معه ، وكانَ الحرُّ قد اشتدَّ أَوَارُه ، وبلغَ
المطرُ بالملكِ وجَوَادِه شدَّتَه ، وما كاد يرى شجرةً يتقاطرُ الماءُ منها ،
حتى أوى إليها ، ليستريحَ في ظلها ، ويُسْقَى من مائها ، وأخذَ الملكُ
طاسًا وملاءً من ذلكَ الماءِ المتَّقاطِرِ ، ووضعَه أمامَه ، ليشربَ ماءً ،
فأسرعَ البازُ وضربَه بجناحه فكفَّأ ، وأراقَ ماءً ، فَلَأهُ الملكُ ثانيةً
ووضعَه أمامَ الجوادِ ، فأسرعَ البازُ أيضًا ، وقلبَ الطاسَ وهَرَّاقَ الماءَ ،
فَلَأهُ ثالثةً وقدمَه للبازِ ليشربَ ، ففعلَ به ما فعلَه في المرةِ الأولى والثانية ،
فاحتدمَ الملكُ غَيْظًا وغَضبا ، وجردَ سَيْفَه ، وضربَ البازَ به ضربةً جعلته
قِطعتين ، فخرَّ البازُ رأسُه مُشيرًا إلى أعلى الشجرةِ ، والتفتَ الملكُ إلى
مَرْمَى نظره ، فرأى فوقَ الشجرةِ حيةً ضخمةً ، يسيلُ السمُّ من فيها ،
فأدركَ أن البازَ فعلَ ما فعلَ ، محافظةً عليه وعلى جَوَادِه ، فابتأسَ وتَدِمَ ،
حيث لا ينفعُه الندمُ ، وركبَ جَوَادَه إلى عسكرِه كثيرًا حزينًا . فأنا أيها
الوزيرُ إن قتلتَ الحكيمَ دُوبانَ خسرتهُ ، وخسِرَ الشعبُ كِفَايَتَه ، وحُرِّمَ
نفعه ، كما خسِرَ الملكُ بازَه ، إذ قتله بيده ، وكانَ يَدْفَعُ عنه موتًا عاجلًا ،
فقال الوزيرُ : وما يخيفُنَا من الحكيمِ دُوبانَ إلا كِفَايَتَه ، ما دامتْ غيرَ



مصحوبة بالثقة به ، والاطمئنان إليه ، وإذا كان قد شفاك من مرضٍ استقصى على حكماء أمته وأطبائها بشئاً أمسكته ، فليس يبعد أن يفجعنا فيك بشئاً تشمه ، تنفيذاً لمكيدة من أحد الملوك ، الطامعين في ملكك ، والندبر مخلوق في طبع ابن آدم ، والماعل من أخذ منه جذره ، فقال الملك : أنسيت أن من الندبر قتله ، وأن مائة الندبر وخيمة ؟ فقال الوزير : ليس ما أشير به عليك من قتله غدرا ، ولكن الحيلة والحدار ، وما أردت لك إلا النصيح والسلامة ما استطعت ، والأمر بعد ذلك إليك ، فاختلفت وجوه الرأي أمام الملك ، ونجم في نفسه ناجم من الخوف على حياته ، أن يطوف عليها طائف من غدر الحكيم دويان وخيائته ، فنزل على رأي وزيره ، وقرّر قتله ، وأرسل في طلبه .

ولما حضر الحكيم دويان قال الملك له : أتدرى ما جئت له ؟ فقال : إنما العلم عند الله ، وعسى أن يكون خيراً ، فقال الملك : هو خير لنا ، وأحييت أن أعجل به ، فقال الحكيم : ويسرنا أن يكون لنا يد فيه ، فقال الملك : ليست يدك ، ولكنها روحك التي بها حياتك ، فقد حلت بقتلك ، ولهذا أحضرتك ، فدهش الحكيم وقال : وهل فعلت ما يستوجب ذلك ؟ فقال الملك : وهل مثلي يقتلك غيلةً وغدرا ؟ فقال : ولكني لا أعرف لى ذنبا ، فقال الملك : إنك بذنبك عليم ، غير أن أمثالك بمن يجهلون لمثل ما جئت من أجله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبذونه لضحاياهم ، وقد بلغني أنك جئت للتجسس علينا واغتيالنا ،

فكانَ من الحزَم أن تقتلَكَ قبلَ أن تقتلنا ، فقال الحكيم : إذا كانَ من الحزَم قتلى ، فمن الحق أن تتبينَ أمرى ، حتى لا تُصيبَنى بجهالةٍ فتصبحَ على ما فعلتَ من التادِمين ، فقال الملك : إن أمرَكَ لا يدعو إلى التَّبينِ الذى يبعثُ فى النفسِ اليقينَ ، ويكفى فيه الأخذُ بالظنِّ ، وأنتَ قد أبرأتنى منَ مرضِ أعجز الأطباءَ والحكماءَ شفاؤهُ ، بشئٍ أمسكتُهُ يدي ، ومن الجائرِ أن تقتلنى بشئٍ أشبه أو أَلِسه ، فأصبحَ من الحذرِ قتلَكَ ، حتى نأمنَ مِن شرك ، وذلكَ ما عزمنا عليه ، ولا رادَّ له ، فقال الحكيم : أعتقدُ أن بابَ عفوكَ يتسعُ لمثلِ ، إن كانَ ما بلغكَ عنى حقاً لارِب فيه ، فكيفَ إذا كانَ قائماً على الحدسِ والظنِّ ؟ فقال الملك : الحدسُ واليقينُ فى هذا الأمرِ سواء ، لأنه يمسُّ الملكَ والعرشَ ، أما العفوُ ففيه مجالٌ لأنَّ يحملَ أمثالَكَ يطعمونَ فيما طمعتَ فيه ، وقد لا ننتبهُ لكيدِم كما انتبهنا الآنَ لكيدِكَ فينفذُ فينا سَهْمَهُم ، فقال الحكيم : لا يفوتكَ أيُّها الملكُ أن العفوَ عملٌ صالحٌ ، والعملُ الصالحُ وقايةٌ لصاحبه ورذو يحميه ، فقال الملك : العملُ القائمُ على التفريطِ وعدمِ البصرِ بالمواقبِ لا صلاحَ فيه ، فقال الحكيم : وهلاً أجِدُ عندَ الملكِ مُهْلَةً إلى الغدِ على أن أكونَ فى حماية حُرَّاسِكَ ، حتى أكتبَ وصيتى لأهلى ، وأحضركَ هديةً تذكرنى بها بعدَ موتى ؟ فقال الملك : أما الوصيةُ فسامكنكَ منها ، ولا شأنَ لى بها ، وأما الهديةُ فأحبُّ أن أعرفَ شيئاً عنها قبلَ أن تحضِرَها ، فقال الحكيم : إنها كتابٌ من الطبِّ ، إذا أنتَ فصلتَ

رَأْسِي مِنْ جَسَدِي ، وَوَضَعْتَهُ فِي صَحْفَةٍ بِيضَاءَ مِلْسَاءَ ، ثُمَّ فَتَحْتُ هَذَا الْكِتَابَ ، وَعَدَدْتُ ثَلَاثَ وَرَقَاتٍ ، وَقَرَأْتُ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ مِنَ الصَّفْحَةِ الْيُسْرَى ، ثُمَّ سَأَلْتُ الرَّأْسَ عَنْ أَى شَيْءٍ أَجَابَكَ عَنْهُ أَجَابَةً صَحِيحَةً .

وَجَاءَ الْحَكِيمُ ، وَفَصَلَ الْمَلِكُ رَأْسَهُ ، وَوَضَعَهُ فِي الصَّفْحَةِ أَمَامَهُ ، وَأَخَذَ يَقْلِبُ أَوْرَاقَ الْكِتَابِ ، فَلَمْ تَطَاوَعُهُ الْأَوْرَاقُ إِلَّا بِمَدَّ أَنْ بَلَّلَ إِبْصِعَهُ مِنْ فِيهِ ، فَلَمَّا عَدَّ الثَّلَاثَةَ الْأَوْرَاقَ ، لَمْ يَجِدْ كِتَابَةً فِي الصَّفْحَةِ الْيُسْرَى ، فَسَأَلَ الرَّأْسَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : اسْتَمِرْ فِي عَدِّ أَوْرَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْتَزَّ عَلَى الْكِتَابَةِ ثُمَّ اقْرَأْهَا ، فَجَمَلَ يَقْلِبُ الْأَوْرَاقَ وَرَقَةً وَرَقَةً ، وَفِي كُلِّ وَرَقَةٍ يَبْلُلُ إِبْصِعَهُ مِنْ فِيهِ ، حَتَّى سَرَى السَّمُّ الَّذِي فِي الْأَوْرَاقِ فِي جَسَدِهِ ، وَأَحْسَنُ الْمَلِكُ آثَارَهُ ، فَأَدْرَكَ الْمَكِيدَةَ الَّتِي كَانَتْ مِنْ صُنْعِ غَدْرِهِ ، وَرَمَى الْكِتَابَ مِنْ يَدِهِ ، وَمَالَبَتْ غَيْرَ قَلِيلٍ حَتَّى كَانَ مَعَ الْحَكِيمِ دُوبَانٌ فِي حَالِ الْفَنَاءِ ، فَنَطَقَ الرَّأْسُ قَائِلًا : حَكَمُوا فَاسْتَطَالُوا وَمَا دَرَوْا أَنَّ الْحَكْمَ غَيْرُ بَاقٍ ، لَوْ أَنْصَفُوا أَنْصَفُوا وَلَكِنْهُمْ بَغَوْا فَأَصْبَحُوا وَمَا لَهُمْ مِنَ الْمَوْتِ مِنْ وَاقٍ ، لَا تَعْجِبُوا فَبَذَا بِذَاكَ وَالْحَكْمُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْخَلَّاقِ .

فَلَوْ أَنَّ الْمَلِكَ أَيْهَا الْعَفْرِيتِ أَحْسَنَ إِلَى الْحَكِيمِ كَمَا أَحْسَنَ إِلَيْهِ ، مَا أَصَابَهُ الْمَوْتُ الَّذِي أَصَابَهُ ، وَكَذَلِكَ أَنْتَ لَوْ قَابَلْتَ مَعْرُوفِي مَعَكَ بِمَعْرُوفٍ مِثْلِهِ ، مَا كُتِبَ عَلَيْكَ السَّجْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ ، وَالَّذِي سَتَمَكْتُ فِيهِ أَبَدَ الْآبِدِينَ ، وَدَهَرَ الدَّاهِرِينَ ، فَقَالَ الْعَفْرِيتُ : إِنَّ الْعَاقِلَ مِنَ

توقفهُ النوائب من غفلته ، وتردُّ إليه صوابه ، وقد عرفتُ الآن أني لم أقدرُ معروفَكَ حقَّ قدره ، وأضلَّني سَوْرَةُ الغضبِ عن الصراطِ السويِّ ، فوقفتُ منك هذا الموقفَ المنكرَ الفادر ، وقد تبتُ الآن إلى الله توبةً نصوحاً ، ولكَ أن تأخذَ عليَّ من الموائيقِ ما يطمئنُّكَ ، ويعلاُ نفسك ثقةً بي ، فأخذَ الصيادُ عليه الميثاقَ ألا يندبَ به ، وأن يجزيه خيرَ الجزاء ، وابتهلَ إلى الله أن يكلاه ، إذا ما تقصَّ الغفريتُ ميثاقه ، وباسمِ الله كُشفَ غطاءُ القممِ فخرجَ منه دخانٌ كالريحِ العاصفِ ، ثم تحوَّلَ إلى شبحٍ يشعُ المنظرُ ، مُشوِّهِ الحَلِيقَةِ ، وضربَ القممِ برجلِهِ فألقاهُ في اليمِّ ، فخشى الصيادُ أن يكونَ هذا نذيرَ الخيانةِ والقدرِ ، وارتقبَ في فزعٍ ما عسى أن يصنعه الغفريتُ به ، وأذركَ الغفريتُ ما أَلَمَ بالصيادِ من رعبٍ ورهبٍ ، فقال : لا تخفَ ولا تحزنْ ، وسأجزيكَ بما فعلتَ خيراً جزيلاً ، فاتبعني إلى حيثُ أسير .

وسارَ الماردُ والصيادُ من خلفهِ ، حتى وصلا إلى جبلٍ فصعدا فيه ، وامتطيا صهواته ، ثم انزلقا على سطحه الآخر ، حتى كانا في أسفلهِ ، على حافةٍ بركةٍ يحيطُ بها أربعةُ جبالٍ ، وفيها سمكٌ مُختلفُ ألوانه ؛ فنه الأبيضُ والأحمرُ ، والأصفرُ والأخضرُ ، فأمرَ الماردُ الصيادَ أن يطرحَ فيها شبكته ، فأخرجتُ أربعَ سمكاتٍ ذاتِ ألوانٍ مختلفةٍ ، فقال الماردُ : خذ هذه السمكاتِ إلى قصرِ المليكِ ، فستأخذُ منها ما يُغنيكَ ويُرضيكَ ، والآن أستودعُكَ ، ثم ضربَ الأرضَ برجلِهِ فانشقتُ ، وهوى فيها ثم ارتفعتُ ، والتأمتُ .

أما الصيادُ فقد وضع السمكاتِ في قفّته ، ثم حملها إلى منزله ، وهناك وضع السمك في وعاء به ماء حتى الصباح ، ثم حملهُ إلى قصر الملك ، ولما رأى الخدمُ أن السمكَ المروضَ عليهم غريبُ الشكل أخبروا الملكَ أمره ، فطلبَ الصيادَ والسمكَ إليه ، ولما رآه عجب منه ، وأمرَ أن يُعطى الصيادُ أربعَ مائة دينار ثمناله ، فأخذها الصيادُ وانتقلَ إلى أهله مسرورا . وأما السمكُ فقد كلفتْ بنضجه طاهيةٌ هندية ، كان قد أهداها له ملكُ الروم منذُ ثلاثة أيام ، ولما قارب النضجُ في الزيت ، انشقَّ جدارُ المطبخ عن فتاةٍ هي أَجملُ من وقعت عليه عَيْنُ بَشَرٍ ، بيدها عصا من الخيزرانِ ، فوضعتْ طرفيها في وعاء السمك وقالت : يا سمك ، يا سمك ، هل أنتَ على العهدِ مُقيم ؟ فرفع السمكُ رأسه وقال : نَعَمْ ، نَعَمْ ، ثم كفأت الفتاةَ الوعاء ، ودخلتْ جدارها ، فأبتلعها ثم التأم ، أما السمكُ فقد صار حجرا طافئا أسودَ كالقَجم .

وبينما الجاريةُ في فزعها ودهشتها إذ جاءها الوزيرُ يأمرها بإحضار السمكِ إلى الملكِ ، فبكتْ وقصّتْ عليه ما رأتْ ، فمعجبَ الوزيرُ وأرسلَ في طلبِ الصيادِ ، وأمره أن يحضر أربعَ سمكاتٍ غيرهن في التوّ والساعة ، ومكث مع الجارية ليرى هو نفسه ماذا يكونُ من أمر السمك ، ولكنه لم يجدْ إلا ما قصته عليه الجارية ، فدهش وتحيّر ثم قال : ذلك أمر لا ينبغي إخفاؤه على الملكِ ، وألّقى في سَميعِ الملكِ ما قصته الجارية ، وصدقته رؤيته ، فأمر الصيادَ أن يأتيه بأربع سمكاتٍ ، وأشرف الملكُ نفسه على



نضج السمك في تلك المرة الثالثة، فرأى ما رأته الجارية وراه الوزير،
 إلا أن الجدار في هذه المرة انشق عن عبد أسود ضخم الجثة، في يده
 عصا من شجرة، فعجب الملك وأمر بإحضار الصياد فسأله: من أين
 تأتي بهذا السمك؟ فقال: من بركة واسعة خلف هذا الجبل. الذي
 يُسرف على مدينتك. وبيننا وبينها مسيرة نصف ساعة، فزاد الملك
 عجباً ودهشة، وسأل من حوله من الوزراء والعسكر: هل منكم من رأى
 هذه البركة؟ فقالوا: لم نرها، ولم نعلم شيئاً عنها، فقال: هيا بنا إليها،
 ولن أعود إلى مدينتي هذه حتى أعرف أمر هذه البركة.

وسار في جُنْدِهِ وحرَسِهِ ووزرائِهِ، وكثير من أعيان المدينة
 ورجالها، ونزلوا على حافة البركة، فضربوا خيامهم وأقاموا، ثم أسرَّ إلى وزير
 من وزرائه، معروف بالحسكة والخبرة، أن يجلس على باب خيمته،
 حتى يخرج وحده، على غفلة من الناس وخفية، ليعرف هو نفسه أمر
 هذه البركة. ثم يعود إلى خيمته، دون أن يعلم ذلك أحد ممن معه.

ثم تنكر في زي أحد من الناس، وجعل خنجره في جيبه. وخرج
 عثى على حافة البركة، لعله يرى شيئاً جديداً، أو يعثر على أحد. يقفه
 على حقيقتها، وطال به السير حتى لاح له شبح أسود، فأسرع إليه،
 فوجدَه قصرًا منيفًا، مبنيًا بحجارة سواده، ومُصَفَّحًا بالحديد، قد أغلق
 أحدُ مصراعي بابه، وفتح الآخر، فطرق الباب طرقًا خفيفًا، ثم
 طرقه طرقًا عنيفًا، ثم أشدَّ عُنْفًا، فلم يُجِبْهُ أحد، فدفق من الباب إلى

دهليز مُستطيل وجَمَلَ ينادى : عابرُ سبيلِ يَبْنِي ماءً وزاداً ، فلم يَسْتَجِبْ
لندائه أحد ، فانفلت منه إلى رَحْبَةٍ فسيحة وَسَطِ القَصْرِ ، مسقوفة بِشبكةٍ
تَحُولُ دُونَ الصَّموذِ منها والنزولِ مِنَ الجوِّ إليها ، يتوسطُ هذه الرَحْبَةُ
فَسْقِيَّةٌ ، عليها تَمَائيلُ لِأَرْبَعَةِ سباعٍ مِنَ الذهبِ ، يسيلُ الماءُ مِنْ أَفْوَاهِها
كَأَنَّهُ ذَائِبُ اللَّجَيْنِ ، وقام على حاقِها تَمَائيلُ مِنْ طيورٍ مُختلفة الأَصْنَافِ ،
ولم يَحْدُ أَحَدًا ، فجلسَ في حيرةٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وعَجِبَ مِمَّا يَرَى ، وإِذْ هُوَ
يَسْتَمِعُ لِأَنِينِ طويلٍ حزينٍ ، فَأَصْنَى إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ يَسْمَعُ : « وقد بَدَأَ
الحزنُ وظَهَرَ ، وبُدِّلَ بالتَّوَمِ السَّهَرُ ، وحاقَتِ بِي المَشَقَّةُ والْخَطَرُ » فَهَضَّ
قائماً واسترقَّ الْخَطَا نَحْوَ ذَلِكَ الْآنِينَ ، حَتَّى كَانَ أَمَامَ مِيتَرِ مُسْبِلِ فَرْعِهِ ،
فإِذَا هُوَ أَمَامَ شَابٍّ هُوَ آيَةٌ فِي الْجَمَالِ وَحُسْنِ التَّقْوِيمِ ، جالسٍ عَلَى سُرِيرٍ ،
وَيَرْتَدِي قَبَاءً مِنْ حَرِيرٍ مَطْرُزٍ بِالذَّهَبِ ، فسلمَ الْمَلِكُ عَلَيْهِ وَحَيَّاهُ ، فَرَدَّ
عَلَيْهِ تَحِيَّتَهُ ، ورجا مِنْهُ أَنْ يَمْدَرَهُ فِي عَدَمِ اسْتَطَاعَتِهِ الْقِيَامَ لِاسْتِقْبَالِهِ ،
فَقَالَ الْمَلِكُ : لَكَ عَذْرُكَ ، وَلَا صَيَّرَ عَلَيْكَ ، وأرجو مِنْكَ أَنْ تَخْبِرَنِي أَمْرَ
هذه الْبَرَكَةِ وَحِكْمَها وقصرها هذا ، وَوَحَدَتَكَ هذه التي لَا أُنَيسَ لَكَ
فِيهَا ، فَأُجَابَهُ الشَّابُّ بِالْبُكَاهِ الْمَضْنِيِّ ، الَّذِي يَحْرِقُ الْكُبُودَ ، وَيَشْقَى
الْمَرَاتِرَ ؛ فَقَالَ الْمَلِكُ : وَمَا يَبْكِيكَ . أَيُّهَا الشَّابُّ ؛ فَقَالَ : كَيْفَ لَا أَبْكِي ،
وَتَلَكَ حَالِي ؟ وَمدَّ يَدَهُ فَكَشَفَ الْغَطَاءَ عَنْ نِصْفِهِ الْأَسْفَلِ ، فَإِذَا هُوَ
حَجَرٌ ، ثُمَّ قَالَ : سَتَسْمَعُ عَجَبًا ، وَسَتَعْلَمُ مَا فِيهِ تَبْصِرَةٌ وَعِبْرَةٌ .

كَانَ وَالَّذِي تَحْمُودُ مَلِكَ هذه الْمَدِينَةِ ؛ وَصَاحِبَ هذه الْجِبَالِ الَّتِي
تَحِيطُ بِالْبَرَكَةِ ، قَضَى عَشْرِينَ سَامًا فِي الْمَلِكِ وَالْحَكْمِ ، ثُمَّ لَحِقَ بِرَبِّهِ ،

وَوُلِّتُ الْمَلِكَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَمْلَكْتُ بَابَنَةَ عَمِّي، وَعِشْتُ مَعَهَا عَشْرَةَ
أَعْوَامَ، عَلَى خَيْرِ مَا يَبْنِي الزَّوْجَانِ، مِنْ مَحَبَّةٍ وَأُلْفَةٍ وَوِثَامٍ، وَلَمْ يُعَكِّرْ
صَفْوَةَ هَذِهِ الْحَيَاةِ عَلَى زَوْجِي إِلَّا أَنَّهُ لَمْ تُرْزَقْ بِنْتٌ أَوْ وَلَدٌ، وَكَانَ سُجْرَانِي
مِنَ الْأَصْدِقَاءِ، وَخُلَطَائِي مِنَ الْمُزْرَاءِ، لَا يَفْتَاوُنَ يَذْكُرُونَ الْوَلَدَ، وَيَتَفَنُّونَهُ
لِي، وَيَحْبِبُونَ إِلَيَّ الزَّوْاجَ مِنْ فِتْنَةٍ أُخْرَى وَلَوْ، حِرْصًا عَلَى مُلْكِي،
وَخَشْيَةً أَنْ يَنْقَطِعَ حَبْلُهُ بِانْقِطَاعِ نَسْلِي، وَتُشْرِقَ شَمْسُ هَذَا الْمَلِكِ فِي
بَيْتِ عَدُوِّي مِنْ بَعْدِي، فَتَزُوجْتُ مِنْ فِتْنَةٍ تَرَفَّتْ عَلَى يَدَيْهَا الْأُمَلُ
الْبَاسِمُ، وَأَرُصُدُ فِي سَمَائِهَا الْكَوْكَبُ الْقَادِمُ، وَكَانَتْ زَوْجَتِي الْأُولَى مَاهِرَةً
فِي السَّحْرِ، فَدَفَعْتَهَا مَوْجَةَ الْغَيَرَةِ إِلَى أَنْ جَعَلْتَنِي كَالطَّائِرِ الْمَهْيُضِ، يَلْتَصِقُ
بِالْأَرْضِ وَبَصَرُهُ فِي الْقَفْضَاءِ، وَمَسَخَتْنِي بِالسَّحْرِ عَلَى نَحْوِ مَا تَرَى،
وَمَسَخَتِ الْمَدِينَةَ سَمَكًا، وَجَعَلْتُ لَوْنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْيَضَ، وَلَوْنَ الْجُوسِ
أَحْمَرَ، وَلَوْنَ النَّصَارَى أَزْرَقَ، وَلَوْنَ الْيَهُودِ أَصْفَرَ، وَجَعَلْتُ الْجَزَائِرَ
الْأَرْبَعَ جِبَالًا كَمَا تَرَى، وَهِيَ تَحْيَا فِي هَذَا الْقَصْرِ، مَتَمَتَّةٌ بِحَيَاةٍ هَانِئَةٍ،
مَا دُمْنَا بِسِحْرِهَا فِي قَبْضَةِ يَدِهَا، فَهَزَّ الْمَلِكُ رَأْسَهُ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِالْخَيْرِ
الْعَاجِلِ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَطْرَقَ مُفَكِّرًا فِي حِيلَةِ تُمَيْدِ الشَّابِّ وَالْمَدِينَةِ
وَالْجَزَائِرِ وَأَهْلِهَا إِلَى سَيْرَتِهِمُ الْأُولَى، وَتَقَفَضَى عَلَى تِلْكَ الزَّوْجَةِ لِأَمْنِهَا
مِنْ شَرِّهَا، ثُمَّ أَخَذَ يَجُولُ فِي أُنْحَاءِ الْقَصْرِ بَاحِثًا عَنْهَا، فَأَلْفَاها جَالِسَةً فِي
فِي حَجَرَتِهَا، مَتَلَفَعَةً بِفَضْلِ كِبَرِيَّاتِهَا وَسُلْطَانِهَا، فَسَلَّمَ وَحَيًّا، فَعَجِبَتْ
أَنْ جَاءَهَا هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّ الْمَدِينَةَ مَسَخَتْ، وَلَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ
مِنْ بَنِي آدَمَ، وَبَدَأَ عَجَبُهَا فِي نَظَرِهَا وَسُهُومِهَا، ثُمَّ قَالَتْ: مَنْ أَنْتَ؟

وما جاء بك إلى هنا ! فقال مابراً أوتيت الحكمة ، أوى إلى هذا القصر
مبتغياً راحة ، فقالت : وهل عثرت فيه على أحدٍ غيري ؟ فقال لم أرَ
غير وجهك الكريم ، فقالت : اجلس على هذا الكرسي ولا بأس
عليك ، ثم سألت : وما أوتيت من الحكمة ؟ فقال أوتيت علماً لا أدمُ
به أثراً لعلمي لدى زوج أو زوجة ، فقالت : ولو كان هذا المقم بيده
المهد بصاحبه ، فقال : ولو أنه عجوز عقيم ، فقالت : إني ماهرة في
في السحر ، وستعلم من قصتي مبلغ قوتي فيه وقدرتي ، ثم قصت عليه
تاريخها وتاريخ زوجها ، وما فعلته من المسخ في ملكه ومُدته وشعبه ،
فقال : لئن أرجعت زوجك وملكه ومُدته وشعبه إلى حالتهم الأولى ،
ولم تعلق من زوجك في مدة شهر فلك أن تمسخهم وتمسخيني معهم
كما تشائين ، وإني أبشرك بسلام زكى ، يكون لك قرة العين ، ومسرة
القلوب ، فقالت : لئن لم تفعل ما وعدتني به لأنسخنك خنزيراً تنشى
المزابيل ، وتطمم أقدر الزاد ، فقال : لك ذلك ، ولا أزال أبشرك ، ثم
استأذنته أن تذهب إلى حجرة أخرى ، لتتلو ما تعرف من آيات
سحرها ، وما لبثت غير فترة قصيرة ، حتى رأى الحال قد تغيرت ، وعاد
كل إلى ما كان عليه ، وكان هذا الملك قد خبأ خنجراً حاداً في جيبه ، فلما
دخلت عليه قال : وأرى ألا تقابلي زوجك الذي لم أره ، حتى أفي بوعدى
معدك ، ولا يأخذ علاجي لقمك ، إلا بمقدار ما أخذت من الوقت في
إرجاع المدينة والجزائر إلى ما كانت عليه ، ثم أجلسها على كرسي أمامه ،
ووقف من خلفها ، يمسح يده على رأسها ، وهو يقرأ ما يقرأ ، ثم سأل

خنجره من حَبِيْبِهِ ، وَغَرَزَهُ فِي الصَّدْرِهَا ، نَفَرَتْ عَلَى الْأَرْضِ جَنَّةً هَامِدَةً ،
وَرَكَّعَهَا إِلَى الشَّابِّ يَهْنَأُ بِسَلَامَتِهِ ، وَقَتَلَ زَوْجَتَهُ ، مَبْعَثٌ شِقْوَتَهُ ،
وَبَلَاءَ قَوْمِهِ ، ثُمَّ قَالَ لِلشَّابِّ الَّذِي كَانَ مَسْهُورًا ، هَذِهِ نِعْمَةُ الْمَلِكِ وَالْحَيَاةِ
السَّمِيدَةِ قَدْ رَجَعْتَ إِلَيْكَ ، وَهَذِهِ زَوْجَتُكَ الْغَادِرَةُ الْجَاهِلَةُ ، قَدْ قَضَى
عَلَيْهَا غَدْرُهَا ، وَسَاقَهَا إِلَى حَتْفِهَا ، وَإِنِّي أَسْتُوْدِعُكَ رَاجِيَاكَ التَّوْفِيقَ
وَالسَّلَامَةَ ، فَقَالَ الشَّابُّ : إِنَّ صُحْبَتِي إِيَّاكَ أَحَبُّ إِلَيَّ نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ
الْمَلِكِ الَّذِي تَرَاهُ ، وَلَنْ يَفْرُقَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِلَّا الْقَضَاءُ الْمَحْتَمُومُ ، وَكَمَا كُنْتُ
سَبَبَ حَيَاتِي فَأَنَا مِنَ السَّاعَةِ ابْنُكَ ، الَّذِي لَا يَتْرُكُ صَحْبَتَكَ ، فَقَالَ الْمَلِكُ :
وَإِنِّي لَسَمِيدٌ بِهَذِهِ الْبُنُوَّةِ ، وَأَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ شَابًا
زَكِيًّا ، يَرْتَنِي مِنْ بَعْدِي ، وَيُخْلِفُنِي فِي مُلْكِي ثُمَّ أَعْلَنَ الشَّابُّ فِي قَوْمِهِ ،
أَنَّهُ ذَاهِبٌ لَزِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاسْتَخْلَفَ فِيهِمْ أَكْبَرَ
وُزَرَائِهِ ، وَسَافَرَ مَعَ الْمَلِكِ إِلَى بِلَادِهِ ، وَهَنَّاكَ وَجَدَ قَوْمَهُ عَلَى أَحْرَافٍ مِنَ
الْجُمُرِ ، فِي انْتِظَارِ أَوْبَتِهِ ، فَاسْتَقْبَلُوهُ فَرَحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ
الْمَقَامَ قَصَّ عَلَى وَزِيرِهِ ، مَا جَرَى فِي غَيْبَتِهِ ، وَأَمَرَ أَنْ يُحْضَرَ إِلَيْهِ الصَّيَّادُ ،
الَّذِي كَانَ سَبَبًا فِي نَجَاةِ الْمَدِينَةِ وَالْجَزَائِرِ مِنْ كَيْدِ الزَّوْجَةِ الْغَادِرَةِ ، فَاسْبَغَ
عَلَيْهِ نِمْشَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَأَدْنَى مِنْهُ مَنْزِلَتَهُ ، وَسَأَلَهُ عَنْ أَبْنَائِهِ ، فَقَالَ :
رَزَقَنِي اللَّهُ ابْنًا وَبَنَتَيْنِ ، جَعَلَ الْمَلِكُ ابْنَهُ عَلَى خَزَائِنِ مُلْكِهِ ، وَتَزَوَّجَ
إِحْدَى بَنَاتِهِ ، وَزَوَّجَ الشَّابَّ بِنْتَهُ الثَّانِيَةَ ، وَاتَّخَذَهُ عَمِيدَ وَزَرَائِهِ ، وَطَابَتْ
لَهُمُ الْحَيَاةُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا .

الفيلفوليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث
الشعبى .. والتى نالت إهتماماً عالمياً فى الشرق والغرب ..
وترجمت إلى كل لغات العالم ..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول
الشباب والناشئة .. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات
كثيرة ..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على
تقديمه إلى القارئ العزيز ..

صدر منها :

- | | |
|-----------------------------------|-----------------------|
| ٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى | ١ - شهر زاد ودنيا زاد |
| ٨ - أبو الحسن وجارىته تودد | ٢ - السندباد البحرى |
| ٩ - الحصان المسحور | ٣ - قمر الزمان |
| ١٠ - على بن بكار وشمس النهار | ٤ - الصياد والعفريت |
| ١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة | ٥ - معروف الإسكافى |
| ١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب | ٦ - الأحذب والخياط |
| ١٣ - على بابا | |



دارالمعارف

قرش جنيه

قرش جنيه
٢.٥٠